معالم الحياة
وأثرها فى الشاعرية والإبداع الفنى
لابن حمديس الصقلى

دكتور

الحسينى محمد إبراهيم الفقى

أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد

معالم الحياة
وأثرها فى الشاعرية والإبداع الفنى
لابن حمديس الصقلى

دكتور

الحسينى محمد إبراهيم الفقى

أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خير من اصطفاه، سيدنا محمد بن عبدالله (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن والاه بإحسان دائم إلى يوم أن نلقاه.

وبعد

هذه دراسة حول (معالم الحياة ، وأثرها فى الشاعرية والإبداع الفنى لابن حمديس الصقلى) ، وإذا كان نتاج الكثير من الشعراء الأندلسيين قد حظى بهذا اللون من الدراسة "فإن شعر ابن حمديس لم يتح له ذلك ، مع أنه يفوق شعراء الأندلس قاطبة ، لإبداع فنه ، وجمال تصويره "[1].

إذا بحثنا عن السبب فى ذلك وجدناه يتمثل فى "غموض نشأته وحياته فى عصر سادته الفتن والحروب والاضطرابات، ومن ثم، فهو

(١) قضايا أندلسية : ٢٢٣ بتصرف.

فى حاجة ماسة إلى إزالة هذا الغموض، وتجلية الجانب الفنى فى شعره "[1].

ولكى يتحقق الرجاء حرصت على إكمال المسيرة بدراسة هذا الجانب بدافع الانتماء لعروبتى أولا، فالشاعر عربى قح[2] "ينتمى إلى عروبة خالصة، إذ يتصل نسبه إلى قبيلة أزد اليمنية"[3] أضف إلى ذلك، أن الدارس لحياته ولشعره يجد نفسه أمام "شخصية فذة، تكشف عن جوانب مشرقة من حضارة المسلمين، فهو شاعر متفتح، قال كثيرا وأبدع فيما قال"[4] ، وحسبه أن أسلوبه يقوم "على عمود الشعر العربى المألوف، وفيه أثر واضح من النفس المشرقى فى الألفاظ والتراكيب"[5].

لهذا كله، كان الإيثار لتلك الدراسة، ومن ثم اشتملت الخطة على ثلاثة مباحث، تسبقها مقدمة وتمهيد، وتعقبها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع.

أما التمهيد فقد تناولت فيه عصر الشاعر وما اكتنفه من تيارات سياسية واجتماعية وثقافية، كان لها صداها وأثرها البالغ فى نفسه.

ونظرا للغموض الذى ساد حياته، كان المبحث الأول عن معالم تلك الحياة ،وفيه وضحت مدى القلق والاضطراب الذى ألم به طوال حياته، وبواعثه وأسبابه، ثم بينت أثر ذلك كله فى تلألؤ نجم

---

(١) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره : ٨٤، ١٢١ بتصرف.
(٢) يقال: فلان من قح العرب وكحهم، أى من صميميم ـ لسان العرب : ٥/ ٣٥٣٥ .
(٣) ابن حمديس الصقلى : ٥ .
(٤) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره : ٣، ٨٦ بتصرف .
(٥) الفتن والنكبات العامة وأثرها فى الشعر الأندلسى: ١٣٥، ١٣٦ .

شاعريته ، ومدى إبداعه الفنى ، وكأن الله أراد أن يعوضه عما ألم به وبالوطن بتلك الشاعرية التى غذتها الموهبة الفطرية والثقافة الأسرية والمعرفية .

ولبيان هذا الإبداع بشئ من التفصيل كان المبحث الثانى، ليحدثنا عن سمات الإبداع الفنى فى شعره، وذلك من خلال المعانى والأفكار، والألفاظ والأساليب، والتصوير الشعرى، والإيقاع الموسيقى .

ولأن الكمال المطلق لله وحده، وأن الشاعر مهما أبدع وأجاد، فإن له ماله من الهنات، ومن ثم كان المبحث الثالث الذى يضعه فى ميزان النقد؛ لبيان الأخطاء التى زلت فيها قدمه رغم شاعريته وعبقريته، وأنى يفيد ذلك مع بشريته .

وفى النهاية كانت الخاتمة وما اشتملت عليه من نتائج وتوصيات أسفرت عنها تلك الدراسة، ثم أردفتها بثبت للمصادر والمراجع .

وإذا كان من كلمة أخيرة، فإنه لا يسعنى أمام هذا الجهد المتواضع إلا أن أتوجه إلى الخالق سبحانه بالثناء على التوفيق الذى رافقنى فى اختيار هذا الموضوع، والكشف عن جوانب العبقرية والإبداع فيه، لعلى أكون قد أسهمت فى إضافة لبنة جديدة إلى صرح المكتبة العربية، والله وحده هو المستعان، وهو حسبى ونعم الوكيل .

الباحث

د/ الحسينى محمد إبراهيم الفقى

التمهيد
عصر الشاعر

اكتنف عصر الشاعر العديد من التيارات التى كان لهـا الأثـر الأليم فى نفسه ، سواء أكان ذلـك علـى المسـتوى السياسـى أم الاجتماعى أم الثقافى كما يلى :

أولا ـ الجانب السياسى:

عاش ابن حمديس الصقلى فى عصر ملوك الطوائف، وذلك فى بداية "القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى، ولا يكاد يوجد أحد من المؤرخين يثنى على هذا العصر سياسيا، بسبب التنافر بـين أمرائه من جراء الاضطراب السياسى الذى ساده"(١).

حيث تفرقت الطوائف وأخذت كل دويلة "تتربص بالأخرى غير عابئة بما يجمعهما من روابط الجنس أو الـدين"(٢)، وحسـب هـذا العصر حسرة وأسفا "أن الشارة الغالبة عليه هى الانهيار"(٣) .

لقد شاهد ابن حمديس تعذيب الأسبان لأهل وطنه تارة، وهـدم بعض المساجد وتحويلها إلى كنائس تارة أخرى، وها هو ذا يعـزى نفسه يائسا قانطا مشفقا على الوطن فيقول من بحر الطويل(٤):

أعاذل دعنى أطلق العبرة التـى ∴ عـدمت لهـا مـن أجمـل الصـبر حابسـا
فإنى امرؤ آوى إلى الشجن الـذى ∴ وجـدت لـه فـى حبـة القلـب ناخسـا
لقـدرت أرضـى أن تعـود لقومهـا ∴ فساءت ظنونى ثـم أصبحت يائسـا(٥)

---

(١) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر : ٥، ٧، ٢١٩ بتصرف .
(٢) مذكرات الأمير عبدالله: ١٠٦ .
(٣) الشعر الأندلسى بحث فى تطوره وخصائصه: ٢٦ بتصرف .
(٤) ديوان ابن حمديس : ٢٧٤ .
(٥) يبدو أن فى هذا البيت تحريف فى قوله (لقـدرت) ولعـل الصـواب (تعوذت) يقال: تعوذ بالله ، إذا لجأ إليه واعتصم به ـ المعجم الـوجيز : ٤٤٠ ،وعلى هذا يكون المعنى المراد : أيها اللائم ، دعنى أطلق عبـرة طال انتظارها يأسا مما أعانيه ، فإنى ألجأ إلـى الله وحـده أن يخلـص أرضى من شر الغاصبين ، حتى تعود إلى قومى كمـا كانـت عزيـزة كريمة ، بعد أن أصابها ما أصابها.

وعزيت فيها النفس لما رأيتها ∴ تكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت ∴ مساجدها أيدى النصارى كنائسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت ∴ مع الصبح والإمساء فيها النواقسا

وبما أن العصر كانت سمته الاضطراب والانهيار على هذا النحو سياسيا، فهل كان كذلك اجتماعيا؟ هذا ما سنعرفه من خلال ما يلى.

ثانيا ـ الجانب الاجتماعى:

انعكس أثر هذا الانهيار والاضطراب سلبا على الرعية التى جنت ثمارا شديدة المرارة ، حيث انتشرت الطبقية "فكانت العامة تعيش للبؤس والحرمان؛ لتنعم الخاصة بمجون الغنى ولهو الثراء، والإسراف فى تشييد القصور التى اكتظت بالغلمان وبالجوارى اللائى اشترين بأبهظ الأثمان على نحو ما فعل المعتصم بن صمادح"(١) . ومما يندى له جبين الحر أن مصدر هذه الأموال كان من "عائد الضرائب الباهظة التى فرضت على الشعب البائس، فضلا عن ألوان العسف والتنكيل التى لحقت بالرعية"(٢) .

كان رد الفعل الطبعى لهذا الوضع المهين، أن ثار الشعراء على الأمراء وكان من أبرزهم خلف بن فرج المعروف بالسميسر الذى هجاهم ورماهم "بالأنانية والتخاذل وضعف الشخصية"(٣)، وإذا أتينا إلى شاعرنا نلحظ مدى عزوفه عن ذلك لا عجزا ولا جبنا ولكن لأن عفة لسانه وطبعه المتدين يأبى أن يجرح غيره مهما كان خطؤه

(١) بتصرف ــ البيئة الأندلسة وأثرها فى الشعر : ٥٣، الدر المنثور: ٣٥٦ .
(٢) بتصرف ــ تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف والمرابطين : ٤٩ ــ ٥٤، والشعر الأندلسى بحث فى تطوره وخصائصه: ١٩ .
(٣) الهجاء فى الأدب الأندلسى: ٤٧ ــ ٥٧ بتصرف .

وكان هذا مبدءه طوال حياته، وها هو ذا يفصح عن ذلك بقوله من بحر المتقارب[1]:

عفاف اللسان مقال الجميل ∴ وفسق اللسان مقال القبيح
ومالى ومالامرئ مسلم ∴ يروح بسيف لسانى جريح

هكذا كان حال العصر سياسيا واجتماعيا صراعات واضطرابات، عانت الرعية منها ما عانت من آلام وويلات، إذا كان الأمر كذلك فماذا عن الجانب الثقافى؟ هذا ما تفصح عنه الفكرة الآتية .

ثالثا ـ الجانب الثقافى:

رب محنة فى طياتها منحة، وصدق فى هذا قول الحق سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] . ذلك ما ينطبق على العصر ثقافيا، "فقد هاجر بعض مفكرى المسلمين إلى صقلية، ونقلت إليها المراجع العلمية من شتى أنحاء الدولة الإسلامية، وتم التبادل الثقافى بين الشرق والأندلس، فازدهرت الحركة العلمية، وتنوعت الدراسات الدينية واللغوية والرياضية والفلسفية"[3].

وكان أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض الشعر. والسبب فى ذلك يرجع إلى "تنافس الملوك والأمراء فى اجتذاب العلماء والشعراء، والرعاية للعلم والشعر تنافسا حاميا"[4] ، وكان المعتمد بن عباد أكثر هؤلاء الأمراء سخاء نحو الشعراء، حيث إنه كان "ذا علم بالشعر وبقواعده، وكان لا يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات، ولما علم بشاعرية ابن حمديس استدعاه وجعل له

(١) ديوان ابن حمديس : ٩٤ .
(٢) البقرة ــ من الآية: ٢١٦ .
(٣) بتصرف ــ ابن حمديس الصقلى حياته من شعره : ٢٢، ٢٣. البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر : ٤٦، ٤٧ .
(٤) تاريخ الفكر الأندلسى : ١٣ بتصرف .

رسما شهريا،وبذلك عد شاعرنا من المنتمين إلى بلاطه"[1]، وعندئذ امتدحه بقصيدته التى استهلها بقوله من بحر البسيط[2]:

أضحت أيادى يديه وهى تؤنسه ∴ إذ أوحشته معاليه من النظرا

وهكذا كانت الحالة الثقافية على هذه الدرجة من الرقى والازدهار ، ليس على المستوى المحلى فقط بل على المستوى العالمى "حيث أقبلت الوفود الأوربية على الحواضر الأندلسية، تنهل من حياض العلم والمعرفة، مما جعلها موئلا للثقافة ومصدرا للإشعاع الحضارى"[3].

تلك كانت ملامح عصر الشاعر سياسيا واجتماعيا وثقافيا، وقد لحظنا مدى أثر ذلك فى نفسه، والإفصاح عنه من خلال شعره، هذا ولن تتضح الصورة على الوجه الأكمل حتى نتعرف على معالم حياته ومدى أثرها فى شاعريته وإبداعه الفنى، ذلك ما سنعرفه من خلال المبحث الأول من تلك الدراسة .

(١) تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف والمرابطين: ٨٢، ٨٣ بتصرف .

(٢) ديوان ابن حمديس: ٢١١ .

(٣) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٥٠ بتصرف.

المبحث الأول
معالم حياة الشاعر

شاعرنا هو "أبو محمد عبدالجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى، ولد فى سرقوسة شمال صقلية عام: ٤٤٧هـ ـ ١٠٥٥م بعد اختلاف بين المصادر، وهذا هو الأرجح: لاتفاق جلها على ذلك"(١) ومن سرقوسة انتقل إلى صقلية "بلد الخير والحرب والجمال"(٢)، أما أنها بلد الخير والجمال "فلكثرة خيراتها ولطبيعتها الغناء التى ألهمت الفنانين والشعراء"(٣) وفى مقدمتهم ابنها الوفى (ابن حمديس) حيث يقول فى بحر الكامل(٤):

بلد أعارته الحمامة طوقها ∴ وكساه حلة ريشه الطاووس
وكأن هاتيك الشقائق قهوة ∴ وكأن ساحات الديار كئوس

وأما أنها بلد الحرب "فلاستيلاء النورمانديين عليها عام ٤٦٤هـ"(٥).

لقد ألمت بالشاعر سلسلة من الأحداث المأساوية التى بدأت بضياع الوطن، وناضل الشاعر بالكلمة مصورا ما آل إليه حال هذا

(١) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٠٨، فى الأدب الأندلسى: ١٠٠، من قضايا الإنسان فى الشعر الأندلسى: ١٥٤، الفتن والنكبات العامة وأثرها فى الشعر الأندلسى: ١٣٥، بدائع البدائه: ٣٧، وفيات الأعيان : ٣/ ٢١٢، نفح الطيب: ٣/ ٦١٦، والأعلام: ٤/ ٧٤ .
(٢) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٢٧ .
(٣) بتصرف ـ فى الأدب الأندلسى: ١٠٠، ابن حمديس الصقلى: ٩٧، ٩٨، ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ٧ ـ ٩ .
(٤) ديوان حمديس: ٥٥٣ .
(٥) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ٤٩ بتصرف .

الوطن من الذل والهوان بعد العز والسلطان ، فيقول من بحر الطويل[1]:

صقلية كاد الزمان بلادها ∴ وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهرا ∴ وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدى قد سامه الروم ذلة ∴ وكان بقومى عزه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه ∴ فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

كما ناضل بالسلاح أيضا: "بالمشاركة فى بعض الغزوات الحربية دفاعا عن الوطن وعن الكرامة[2]" لكن ما جدوى ذلك والوطن والشعب يننان تحت جبروت الاحتلال، ومن ثم "كان قرار الرحيل إلى الأندلس وأفريقية ليقضى بهما ستا وخمسين سنة، وهى كل ما تبقى من حياته"[3].

وما أن أسدل الستار على هذه الحلقة من سلسلة الأحداث إلا وبدأت تلك الحلقة من الاغتراب والتشرد فى البلاد طوال هذه المدة التى عانى الشاعر فيها ما عانى من قسوة الاغتراب ولوعة الفراق فيقول من بحر الخفيف[4] :

كل يوم مودع أو مودع ∴ بفراق من الزمان منوع
فبنار الأسى يحرق قلب ∴ وبماء الهوى يغرق مدمع
هذه عادة الليالى فلمها ∴ وهى لا تسمع الملامة أودع

(١) ديوان ابن حمديس : ٢٧٥ .
(٢) من قضايا الإنسان فى الشعر الأندلسى: ١٥٤ بتصرف.
(٣) بتصرف ــ تاريخ الأدب العربى ــ بروكلمان : ١/ ٢٦٩، بلاغة العرب فى الأندلس: ١٢٩، ابن حمديس الصقلى: ٥، وابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ٧٨ .
(٤) ديوان ابن حمديس : ٣٠٤ بتصرف .

ويقول أيضا من بحر الكامل [1] :

طال التغرب فى بلاد خصصت ∴ بوخامة المرعى وطرق المشرب
فطويت أحشائى على الألم الذى ∴ لم يشفه إلا وجود المذهب
إن الخطوب طرقننى فى جنة ∴ أخرجننى منها خروج المذنب

وطالما أعلن عن بغضه للمستعمر وتنديده بجبروته حيث يقول من بحر الطويل [2]:

ولو أن أرضى حرة لأتيتها ∴ بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها ∴ من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب
لئن ظفرت تلك الكلاب بأكلها ∴ فبعد سكون للفروق الضوارب

ولم يكتف بذلك، فكثيرا ما كان يلفت أهل بلده إلى محنة وطنه مستنفرا إياهم إلى الجهاد والتحرير فيقول من بحر الطويل[3]:

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى أمى ∴ إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم إنى خائف أن تدوسكم ∴ دواه وأنتم فى الأمانى مع الحلم
فإن بلاد الناس ليست بلادكم ∴ ولا جاردا والحلم كالجار والحلم
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم ∴ وكم خالة جداء لم تغن عن أم

(١) ديوان ابن حمديس : ٥٣٨ ، يقال : وخم المكان ، إذا كان ثقيلا على النفس التى أرغمت على اللبث فيه المعجم الوجيز: ٦٦٣ .
(٢) ديوان ابن حمديس : ٣١ ،والمراد بضربة لازب ، المبارة فى إصابة الهدف ، يقال: لزب الشيء لزوبا إذا ثبت والعلوج جمع علج، وهو كل جاف شديد من الرجال ــ المعجم الوجيز : ٤٣٠ . ٥٥٥ .
(٣) ديوان ابن حمديس : ٤١٦، ٤١٧ بتصرف، والجداء القليلة اللبن، يقال : فلان قليل الجداء ، أى قليل النفع والغناء ــ لسان العرب ٥٧٢/١ .

كل هذا يؤكد مدى الوفاء لهذا الوطن الذى لم يغب عن خاطره لحظة، تمر عليه الحسناوات فى ربوع الأندلس فيشبه الحنين إليهن بالحنين إلى الوطن، فيقول من بحر الكامل[1]:

ومعذبى من يستلذ تعذبى ∴ لابات من بلواى كيف أبيت
رشأ أحن إلى هواه كأنه ∴ وطن ولدت بأرضه ونشيت

ويطرق سمعه هديل الورقاء وهزيج القوافل وغناء الحادى فتهيج بلابل أشواقه، حيث يقول من بحر الطويل[2]:

فورقاء لم تأرق بحزن جفونها ∴ وبلبلة لم يدر منها الأسى بال
وأذكرتنى عصر الشباب الذى مضى ∴ لبردى فيه التنعم إسبال
ونضرة عيش كان همى جامدا ∴ به حيث تبرى فى الزجاجة سيال
ودار غدونا عن حماها ولم نرح ∴ ونحن إليها بالعرانم قنال

ويقول أيضا من بحر الطويل : [3]

طوى البعد عنا فانطوينا على الجوى ∴ نواعم تشقى بالنعيم وتنعم
دعونا نساير حاديا قاد نحوها ∴ مسامعنا منه الحداء المنغم
أرجع بالشوق الحنين وإنما ∴ يهيج حنينى عودها حين يرزم

واستمر على هذه الدرجة من الصدق والوفاء حتى وافاد القدر عن عمر يناهز الثمانين عاما.

ومن خلال هذه الرحلة الطويلة من الاغتراب تبدأ الحلقة الثالثة والأخيرة، وهى فقد الأحباب والأخلاء الذين فجع بهم إبان غربته. وكأنه قدر عليه أن يعيش مشردا غريبا مكلوما بفقد القادة النجباء

(١) ديوان ابن حمديس : ٧٢ ،والرشأ : ولد الظبية إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ــ المعجم الوجيز : ٢٦٤ .
(٢) ديوان ابن حمديس : ٣٥٧ .
(٣)المصدر نفسه ٤٠٩ بتصرف

الذين استشهدوا دفاعا عن الوطن، وفقد الزوجة والابنة وابن الأخت والعمة والمعتمد بن عباد حتى الجارية التى أحبها وأخلص لها، ومن منطلق الوفاء رثاهم جميعا بعيون القصائد[1].

كل تلك الأحداث كان لها تأثيرها السلبى الحاد على الشاعر شكلا ومضمونا، أما الشكل فقد أسرع المشيب إلى رأسه من جراء الهموم والأحزان، حيث يقول من بحر الطويل[2] :

ولم أر كالدنيا خؤونا لصاحب ∴ ولا كمصابى بالشباب مصابا
فقدت الصبا فابيض مسود لمتى ∴ كأن الصبا للشيب كان خضابا

وأما المضمون فقد لازمه الاضطراب النفسى طوال حياته المليئة بالتناقضات، والمثيرة للعديد من التساؤلات فى كثير من المجالات.

ففى مجال التعامل مع الأنام تارة نراه اجتماعيا مجاملا فى السراء والضراء، كمدحه للمعتمد وسواه من الملوك والأمراء،ها هو ذا يمدح المعتمد بقصيدته التى استهلها بقوله من بحر البسيط[3]:

جلا محياك عن أبصارنا الرمدا ∴ وقرب الله من مرآك ما بعدا

---

(١) ديوان ابن حمديس ــ رثاء القادة: ١٦٣ ــ ١٦٦، ١٧٣ ــ ١٧٥، ٣٩٨ ــ ٤٠١، ٤٨٢ ــ ٤٨٥ ، ٥٢٥ ــ ٥٢٩، رثاء الوالد: ٥٢٢ ــ ٥٢٤، رثاء الزوجة: ٤٧٨ ــ ٤٨٠، رثاء الابنة: ٣٦٤ ــ ٣٦٦، رثاء ابن الأخت: ١٢١ ــ ١٢٤ ، رثاء العمة: ٣٥ ــ ٣٧، رثاء الجارية: ٢١٢ ــ ٢١٥، ٣٢٤، رثاء المعتمد: ٢٦٨ ــ ٢٧٢، ٤٧٨ ــ ٤٨٠ ، ٥٣٠ ــ ٥٣٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٥٤٠ ، واللمة بكسر اللام المشددة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن ــ المعجم الوجيز : ٥٦٥ .

(٣) ديوان ابن حمديس: ١٧٠ .

كما يمدح الأمير أبا الحسن عليا بن يحيى ، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر الكامل[1]:

تفشى يداك سرائر الأغماد ∴ لقطاف هام واختلاء هواد

كما رثى الأخلاء والقادة النجباء، فمن الأخلاء : الشاعر عمر الزكرمى . وذلك من خلال هذه القصيدة التى استهلها بقوله من بحر الوافر[2] :

أيا خلج المدامع لا تفيضى ∴ وذوبى غير جامدة وفيضى

ومن القادة النجباء : عبدالغنى الصقلى ، حيث يقول من قصيدة استهلها بقوله من بحر الخفيف [3]

هل أقال الحمام عثرة حيّ ∴ أم عدا سهمه فؤاد رميّ

وتارة نراه انطوائيا منعزلا عن المجتمع، ليست عزلة اليائس. وإنما هى "عزلة راهب الفكر فى محراب التأمل والإبداع الفنى.

فيقول من بحر الطويل" [4]:

ولا سكن إلا مناجاة فكرة ∴ كأنى بها مستحضر كل غائب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وفى مجال النظرة إلى الحياة، تارة يكون "متفائلا مؤمنا بالقدر الذى يؤمله فى العودة إلى الوطن[5]"، وتارة يكون "ساخطا دائم الشكوى من الزمان والأصحاب، وذلك من قصيدة استهلها بقوله من بحر الطويل"[6]:

---

(١) ديوان ابن حمديس : ١٤٥ والمراد باختلاء الهوادى : قطع الأعناق
(٢) المصدر نفسه : ٢٩٤ ، والزكرمى نسبة إلى زكرم وهى إما قرية بإفريقية أو الأندلس ،وإما قبيلة من البربر .
(٣) المصدر نفسه : ٥٢٥ .
(٤) المصدر نفسه: ٣٠، ابن حمديس الصقلى : ٦٣ ، ٦٤ بتصرف.
(٥) ابن حمديس الصقلى : ٦٥، ٣٣٤ .
(٦) ابن حمديس الصقلى: ٢٩، بتصرف ــ فى الأدب الأندلسى: ١٠٥، قضايا أندلسية: ٢٢٥ ، ديوان ابن حمديس ٤٠٨ .

بحكم زمان يالـه كيـف يحكـم ∴ يحـــرم أوطانـــا علينـــا فتحـــرم

"وأكبر الظن أنه ليس هناك صاحب معين، وإنما هذا رمز إلـى جميع المسلمين الذين عجزوا عن نصرة الوطن"(١).

وفى مجال التعامل مع الله، تارة نجده لاهيا يحضـر مجـالس اللهو "ويستسلم للهوه وحبه وخمره فى رحاب الطبيعة" وذلـك مـن خلال أبيات استهلها بقوله من بحر المتقارب(٢) :

وفتيـان صـدق كزهـر النجـوم ∴ كـــرام النحـــائز أحرارهـــا

ومن الإنصاف أن مجالسه لم تكن كلها لهوا، بل "كان يجـالس الأدباء ويساجلهم الشعر، ويعكف على ذلك بكرة وأصيلا"(٣)، وتـارة نجده متدينا عف اللسان، لم يرتض الهجاء سلوكا مدى الحيـاة مـع القدرة عليه، والسبب فى ذلك يرجع إلى "التربيـة الجـادة والنشـأة الصالحة". حيث يقول من قصيدة استهلها بقوله من بحر البسيط"(٤)

إنـى امـرؤ لا تـرى لسـانى ∴ منظمـــا مـــا حييـــت هجـــوا

نتيجة لهذا الكم من التناقضات، أخذ يبحث عما يريحه نفسـيا ولو لحظات، مما ألم به وبالوطن الجريح من نوائب وصدمات، وكان المتنفس أيضا فى العديد من المجالات: تارة يلجأ إلى الفكاهـة كلمـا اشتد عليه الجور، وضاقت به الحياة، وأوصافه للحمام الضيق السن

---

(١) العرب فى صقلية: ٢٤٩ بتصرف.
(٢) ديوان ابـن حمـديس: ١٨١، فـى الأدب الأندلسـى: ١٣١ . والنحائز: الطبائع والأخلاق.
(٣) تاريخ الأدب العربى فى الأندلس والمغرب: ٩٠ بتصرف.
(٤) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٢٠ بتصرف، ديوان ابن حمديس: ٥٢٠

الهواء ، وللبعوض والبق والبراغيث ما يؤيد ذلك، أما عن الحمام ، فيقول من بحر المتقارب[1]:

وحمام سوء وخيم الهواء ∴ قليل المياه كثير الزحام
فما للقيام قعود به ∴ ولا للقعود به من قيام
حنياته قانصات لنفسى ∴ وقطراته صانبات السهام
ذكرت به النار حتى لقد ∴ تخيلت إيقادها فى عظامى
فيارب عفوك عن مذنب ∴ يخاف لقاءك بعد الحمام

وأما عن البعوض والبق والبراغيث ، فيقول من بحر الكامل[2]

نومى على ظهر الفراش منغص ∴ والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاء بت ∴ وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمى خمرا تداوم شربها ∴ مسترخصات منها مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابه ∴ والبق تشرب والبراغيث ترقص

وتارة يلجأ إلى الزهد يستخلص العظات والعبر فى تصوير النهاية، والخوف من المصير المجهول، "وليس معنى هذا أنه كان من الزهاد أو النساك، وإنما هو نوع من الاعتراف وحساب النفس التى تجد راحتها فى الأوبة إلى رحاب التوبة ، يبدو هذا جليا فى تلك القصيدة التى استهلها بقوله من بحر الرجز"[3]:

بيتك فيه مصرعك ∴ وفى الضريح مضجعك
غرتك دنياك التى ∴ لها شراب يخدعك

وتارة يلجأ إلى الخمر يشربها كى تنسيه واقعه، ويهرب بها من ضيقه وشقائه ، ومن الإنصاف أن نقرر أنه لم يكن ماجنا

(١) ديوان ابن حمديس: ٥٥٩، ٥٦٠، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر : ٥١١ بتصرف .
(٢) ديوان ابن حمديس : ٢٨٩ ، والبيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر : ٥١١ بتصرف .
(٣) ديوان ابن حمديس: ٣٤٨، ابن حمديس الصقلى: ٥٤ بتصرف.

عربيدا، وإنما كان يبغضها ولم يشربها إلا شميما، حيث يقول من بحر الكامل[1] :

يارب مجلس لذة شاهدتها ∴ كرها وجنح الليل مد جناحا
أمسيت مغطوما عن الكأس التى ∴ يتراضع الندماء منها راحا
إلا شميما كان همها سكره ∴ وغناؤه فى مسمعى نياحا

وتارة يستهويه الغزل فنجد أنفسنا أمام إنسان رقيق مرهف الأحاسيس، يغشى مجالس الأنس ؛ فرارا من واقعه الأليم، وتسلية لنفسه التى تستشعر الراحة والسعادة فى الحب المعذب، كما فى قصيدته التى استهلها بقوله من بحر الطويل[2] :

أذبت فؤادى يافديتك بالعتب ∴ ولوبت صبا ما عنفت على صب

وتارة يلجأ إلى الطبيعة يتغنى بجمالها، لعله يجد فيها شعلة من النور تبدد ظلام نفسه، من ثم كانت فتنته بها حين مزج بينها وبين الخمر والغزل والرثاء، فمثال المزج بين الطبيعة والخمر ، قصيدته التى استهلها بقوله من بحر الخفيف[3] :

نحن فى جنة نباكر منها ∴ ساحلى جدول كسيف مجرد

ومثال المزج بين الطبيعة وبين الغزل والرثاء ، رثاؤه لجاريته التى ماتت غرقا ، وذلك من خلال تلك القصيدة التى استهلها بقوله من بحر البسيط :[4]

أيا رشاقة غصن البان ما هصرك ∴ ويا تألف نظم الشمل من نثرك؟

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٨٠، بتصرف، ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٢٦ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ١٨، ابن حمديس الصقلى: ١٩، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٤٣١ بتصرف .
(٣) ديوان ابن حمديس: ١٢٥ .
(٤) المصدر نفسه: ٢١٢ ، ٢١٣ .

وأخيرا يلجأ إلى أحلام اليقظة ، فيعيش ولو بضع لحظات سابحا فى عالم الخيال، وما فيه من أمانى وأحلام، تهب عليه النسمة الرقيقة فيتخيلها محملة بأريج الأطلال والأخلاء حتى العظام فى قبور وطنه، حيث يقول من بحر الطويل[1]:

ألا حبذا تلك الديار أو اهلا ∴ وياحبذا منها رسوم وأطلال
وياحبذا منها تنسم نفحة ∴ تؤديه أسحار إلينا وآصال
وياحبذا الأحياء منهم وحبذا ∴ مفاصل منهم فى القبور وأوصال

كما يتخيل الهلال زورقا يعبر به البحر شوقا إلى الوطن، ويتخيل البحر إنسانا يقاسمه أحزانه، ويشاركه آلامه ، فيقول من بحر المتقارب[2]:

وراءك يابحر لى جنة ∴ لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحا ∴ تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى ∴ إذا منح البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا ∴ إلى أن أعانق فيها ذكاء

هكذا كانت حياة شاعرنا مسرحا للهموم التى لازمته حتى أيامه الأخيرة التى منى فيها بالبؤس والعمى، واستولت عليه الرهبة من النهاية المحتومة، حتى فارق الحياة سنة ٥٢٧هـ ـ ١١٣٥م عن ثمانين عاما .

هذا عن معالم حياته، وأما عن أثرها فى شاعريته، فقد كانت كل تلك الأحداث المؤسفة فاتحة خير عليه، إذ فجرت فيه شاعريته، وأتقدت قريحته ، حتى بذ جميع أقرانه، وكثيرا ما كان يزهو بذلك حيث يقول من بحر الكامل[3]:

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٣٥٩ .
(٢) المصدر نفسه: ٤، والذكاء بضم الذال المشددة : ضوء الشمس ـ المعجم الوجيز: ٢٤٥ .
(٣) ديوان ابن حمديس: ٥٣٨ ، ٥٣٩ بتصرف ، والفنيق : الفحل من الإبل ـ المعجم الوجيز: ٤٨٢ .

كم من قواف كالشوارد صرتها ∴ عن مثل جرجرة الفنيق المصعب
نفث البديع بسحره فى مقولى ∴ فنطقت بالجادى والمتذهب
وإذا اعتقدت العدل ثم وزنتنى ∴ رجحت حصاتى فى القريض بكبكب

وبالنظرة المتأنية لوحظ وجود العديد من العوامل التى ساعدت على إذكاء تلك الشاعرية.

من بين تلك العوامل: الإحساس بضياع الوطن، فقد كان ضياعه كارثة مروعة أكسبته دقة فى الإحساس وروعة فى الوصف، وقد تجلى أثر ذلك واضحا حين تبارى الشعراء فى وصف قصور الأمراء بالأندلس، وكان ابن حمديس أبرزهم،" حيث شهد القدماء والمحدثون من العرب والأجانب ببراعته فى هذا المجال"(١)، وأوصافه المبهرة لقصور المعتمد وبركة المنصور خير شاهد على ذلك . هاهو ذا يبدع فى وصف قصور المعتمد ، وذلك من خلال قصيدة اشتملت فى ثناياها على أبيات استهلها بقوله من بحر الطويل (٢):

وياحبذا دار يد الله مسحت ∴ عليها بتجديد اللقاء فما تبلى
مقدسة لو أن موسى كليمه ∴ مشى قدما فى أرضها خلع النعلا

وعلى نفس الشاكلة تتجلى براعته فى وصف بركة المنصور وذلك فى قوله من بحر الكامل(٣):

فى بركة قامت على حافاتها ∴ أسد تذل لعزة السلطان
وكأن برد الماء منها مطفىء ∴ نارا مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها ∴ يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها ∴ أخذت من المنصور عقد أمان

(١) بتصرف ــ فى الأدب الأندلسى : ١٠٠ ، ابن حمديس الصقلى : ٦ ، ٧ ، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر : ٤٥٩ ، ٤٦٠ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ٣٧٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٩٦ بتصرف .

وثانى تلك العوامل: الإحساس بمرارة الغربة التى تعد أقوى قوة حركت فيه شاعريته الصحيحة، حيث لازمته فيها عقدة الإحساس بالذنب، ذنب المغادرة للوطن فى وقت كان فى أمس الحاجة إليه، ومن ثم لم يفارق طيفه خياله لحظة، فكثيرا ما كان يدكر بأمجاد قومه، ويحرضهم على الجهاد، ويصف قادتهم النجباء، بالعزة والإباء فيقول من بحر الطويل [1] :

عدمت أسودا منهم عربية ∴ ترى بين أيديها العلوج فرانسا
فلم ترعينى مثلهم فى كتيبة ∴ مضارب أبطال الحروب مداعسا

أما ثالث العوامل فيتمثل فى ازدهار الحياة الثقافية فى عصر الشاعر الذى حظى بلقب "(العصر الذهبى) بسبب الرواج الأدبى والحضارى[2]" على يد الملوك والأمراء بعامة وبنى عباد بخاصة ومدى تشجيعهم للشعراء، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كالمعتضد والمعتمد[3]، ومن حسن الحظ أن استمرت هذه النهضة حتى بعد ذهاب المعتمد وزوال دولته، فقد كان العوض فى "(مبشر بن سليمان) الذى كان مفزعا للشعراء، وكان ابن حمديس من كبار الشعراء الذين وفدوا عليه"[4].

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٧٥ ، والمداعس جمع مدعس وهو المرمح الغليظ الشديد الذى لا ينثنى ــ المعجم الوجيز : ٢٢٨ .
(٢) بتصرف ــ ظهر الإسلام: ٣/ ١٥٦، الفتن والنكبات الخاصة وأثرها فى الشعر الأندلسى : ١٣٢ ، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٨، قصة الأدب فى الأندلس: ٦٦ ــ ٧٠ .
(٣) بتصرف ــ فى الأدب الأندلسى: ٢٥، ٩٢، قصة الأدب فى الأندلس: ٦٨، ابن حمديس الصقلى: ٩٤، الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه: ٣٥١، الشعر الأندلسى بحث فى تطوره وخصائصه: ١٩
(٤) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٢٣٠ بتصرف.

إثر هذا الاستعراض لبواعث تلك الشاعرية، كان هناك أيضا العديد من الروافد التى غذتها، من بين تلك الروافد: الموهبة الفطرية، فقد من الله عليه بهذا النوع من المواهب الذى منحه شاعرية ملهمة، فكان من أبرز الشعراء المبدعين المثقفين، وكان من فضل الله عليه أن استمرت تلك الموهبة حتى نهاية حياته إبان مرحلة الشيخوخة، "فهو وإن شاخ عمرا، إلا أنه لم يشخ إحساسا وشعرا[١] ها هو ذا يفصح عن ذلك بقوله من بحر الطويل[٢] :

ومن حل فى سبعين عاما كأنه ∴ علاج عليل فى مواصلة النكس

فما فهم الأشياء بالدرس وحده ∴ ولكنه بدء التفهم والدرس
وكم حكم فى خط قوم كثيرة ∴ وأفضل منها لمعة من سنا الحس

وفى موطن آخر يؤكد ذلك بقوله من بحر الكامل : [٣]

إنى امرؤ أبنى القريض ولا أرى ∴ زمنا يحاول هدم ما أنا بانى
وطعنت فى سن الكبير ومانبا ∴ عن طعن شاكلة البديع سنانى

وتعد الثقافة الأسرية من أهم تلك الروافد، فقد نشأ (رحمه الله) فى أسرة كانت على جانب من الثقافة والتفتح الشعرى، وحسبه أن والده " كان أول أستاذ يجلس منه مجلس المتعلم ها هو ذا يصرح بذلك من خلال رثائه إياه بقوله من بحر المتقارب[٤] :

سمعت مقالة شيخى النصيح ∴ وأرضى عن أرضه نانيه

---

(١) بتصرف ــ الأعلام ٤/ ٤٧، ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٢٣ .
(٢) ديوان ابن حمديس : ٢٨١ .
(٣) المصدر نفسه : ٥٠١ بتصرف .
(٤) بتصرف ــ ابن حمديس الصقلى: ٥، ٦، ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٢٢، ١٢٧، ديوان ابن حمديس: ٥٢٣ .

وأخيرا تأتى الثقافة المعرفية لتمثل أبرز تلك الروافد. فقد كان رحمه الله يتميز "بعمق الثقافة وتنوع المعارف قديمها وحديثها"[١] وذلك فى العديد من المجالات:

ففى المجال الدينى، نجد العديد من المواضع يقتبس فيها من آى القرآن الكريم كقوله من بحر الطويل [٢]:

وتال من القرآن "قل لن يصينا" ∴ وقد حان من زهر النجوم غروبها

ويشير إلى بعض المصطلحات الفقهية: كالنذر والربا ومناسك الحج، كما يشير إلى بعض الأحكام الشرعية: كالصلاة بالإيماء. والجلسة القصيرة بين الخطبتين، والرخصة الشرعية وغير ذلك نحو قوله من بحر البسيط :[٣].

مضنى يرد سلام العائدات له ∴ مثل الفريق إذا صلى بإيماء

وفى المجال اللغوى، نجده يشير إلى موضوعات نحوية وصرفية كقوله من بحر الوافر[٤]:

فصرف فى العلا الأفعال حزما ∴ وعزما إن نحوت بها الصوابا

وقواعد بلاغية كقوله من بحر الكامل[٥]:

ليت التفاتى فى القريض أعرته ∴ حسن التفاتك رحمة لكئيب

---

(١) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره:١٢٣، ١٣١، ١٤٣ بتصرف.

(٢) ديوان ابن حمديس:٤٣ والاقتباس من الآية : ٥١ التوبة ونماذج أخرى ص ٦٥، ١٨٣، ٢٦٤، ٤٨٣، ٤٧٨، ٥٤٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ وينظر نماذج أخرى ص ٦، ٢١٤، ٢٣١، ٢٩٠، ٤٢٨ .

(٤) المصدر نفسه: ١٤وينظر نماذج أخرى ص ١٢٣، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٢٦، ٤٤٨، ٤٧٤ .

(٥) ديوان ابن حمديس: ٥٩ وينظر نموذج آخر: ص ٣٨٨ .

ومصطلحات عروضية كقوله من بحر الكامل[1]:

وذكرت من ضرب المرفل صيغة ∴ بمر فل من ذلك المحوب

وأقوال مشهورة: كالتعبير بثالثة الأثافى نحو قوله من بحر الكامل[2]:

يرمى بثالثة الأثا فى قرنه ∴ فالأرض منها تشتكى الزلزالا

وبقوله إن السفينة لا تجرى على اليبس وذلك من بحر البسيط[3]:

ماذا تقول ولج البحر يسحبه ∴ إن السفينة لا تجرى على اليبس

وأمثال عربية: كالإشارة إلى المثل (حال الجريض دون القريض) وذلك فى قوله من بحر الوافر[4]:

وقالوا الزكرمى أذيق كأسا ∴ يحول بها الجريض عن القريض

وكذلك (حاز بيض الأنوق) كقوله من بحر المتقارب [5]:

فبات ولا خوف فى نفسه ∴ بهمته حاز بيض الأنوق

وكذلك (صمى صمام) كقوله من بحر السريع [6]:

لت عليك الدهر فى صرفه ∴ وقلت للأحداث صمى صمام

وكذلك(أعط القوس باريها) حيث يقول من بحر البسيط [7]:

تناول القوس باريهافأ سهمه ∴ نوافذ فى العدى أغراضها الثغر

---

(١) المصدر نفسه: ٥٩،ينظر نماذج أخرى ص : ٨٦، ١٤٢، ١٦٢، ٤١٩

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٨، مجمع الأمثال: ١/ ٤٠٢، لسان العرب ٢٧/١ والأثا فى جمع أثفية : وهى أحدا أحجار ثلاثة توضع عليها القدر ــ المعجم الوجيز: ٦ .

(٣) ديوان ابن حمديس: ٢٨٥، إحياء علوم الدين ٤/ ١٤٤ .

(٤) ديوان ابن حمديس: ٢٩٥،مجمع الأمثال: ١/ ٢٦٧، لسان العرب ٦٠٠/١ والجريض : الغصة تصيب المحتضر حال النزع ــ المعجم الوجيز: ١٠١

(٥) ديوان ابن حمديس : ٣٢٧، مجمع الأمثال: ١/ ٦٧٥، لسان العرب: ١/ ١٥٣، ٦/ ٤٥، ٩٣والأنوق :طائر العقاب ــ المعجم الوجيز: ٢٨ .

(٦) ديوان ابن حمديس: ٤١١، مجمع الأمثال: ١/ ٥٥٠، لسان العرب ٢٥٠٢/٤ والمراد شدة وقع الداهية على النفس.

(٧) ديوان ابن حمديس: ٢٢٣، مجمع الأمثال: ١/ ٦٤٢ .

وكذلك(لا يكذب الرائد أهله) كقوله من بحر الكامل[1] :

لا يكذب الإنسان رائد عقله ∴ فامرر تمج وكن غذوبا تشرب

وفى المجال الكونى نجده يشير إلى القطب والفلك وبعض منازل القمر، وبعض المظاهر الكونية كقوله من بحر الطويل[2] :

وقالوا اكشفوا بالبحث عن أصل وجده ∴ فلا فلك إلا يدور على قطب

وفى المجال الفلسفى وعلم الكلام والسمعيات، يشير إلى الجوهر والعرض والتضاد والأصل والفرع والنفس والصورة والهيولى والكسب، وسؤال القبر، والصراط والجنة والنار وأصل الخلق والروح والموت والنشور والحساب والجزاء وذلك نحو قوله من بحر المتقارب[3]:

زجاج وخمروماء كما ∴ تقول هيولى ونفس وصوره

وفى المجال الطبعي يشير إلى المد والجزر والضوء والرطوبة واليبوسة والجاذبية والمغناطيسية والمرايا العاكسة ومن ذلك قوله من بحر المتقارب[4]:

كأن لنفسك مغنطيسا ∴ غدت للذنوب به جاذبه

وفى المجال التاريخى يشير تارة إلى القصص القرآنى الكريم نحو قوله من بحر الكامل[5]:

قد كنت فى عهد النصيح كآدم ∴ لكن ذكرت هوى الدمى فنسيت
كيف التخلص من فواتر أعين ∴ يلقى حبائل سحرها ماروت

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٥٣٨، مجمع الأمثال: ٢/ ٢٣٨ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ٢٢ ونماذج أخرى ص: ٧٩، ٣٧٣، ٥٤٢ .
(٣) المصدر نفسه: ١٨٤ ونماذج أخرى ص: ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٤٦، ٣٩٨، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٨، ٥١٨، ٥٢٥، ٥٢٦ .
(٤) المصدر نفسه: ٤١ونماذج أخرى ص:٦٣ ، ١٥٠ ، ٢٨٢ ، ٣٥٠
(٥) المصدر نفسه: ٧٢ ونماذج أخرى ص: ٣١٠ ، ٣٧٩، ٣٩٩، ٤٤٩ .

وتارة إلى موضوعات من سيرة الرسول (ﷺ) كقوله من بحر الكامل[1] :

أوليس إبراهيم نجل محمد ∴ بالدفن صار إلى بلى ونفاد

وتارة إلى بعض الفرق الدينية : كالقاعدية والرافضة ومثال ذلك قوله من بحر المتدارك[2] :

لا أشرب ما أنا واصفه ∴ فكأنى بينهم قعدى

وتارة إلى أحداث تاريخية عامة: كتشبيهه أحد عباد النجوم فى كذبه بمسيلمة الكذاب ، حيث يقول من بحر الطويل[3]:

إذا جال فى علم الغيوب حسبته ∴ مسيلمة الكذاب قام من القبر

وفى المجال البيئى نجده يؤكد لنا مدى خبرته بخصائص النباتات، ودرايته بطبائع الحيوانات والحشرات، ومن ذلك وصفه لطباع العقرب بقوله من بحر الطويل[4]:

مداخلة فى بعضها خلق بعضها ∴ كجوشن عظم ثلمته حروبها

تذيق خفى السم من وخز إبرة ∴ إذا لسبت ماذا يلاقى لسيبها

وفى المجال الفنى يشير إلى الأجزاء الدقيقة من بعض الآلات الموسيقية: كالبم والزير، والترديد لأسماء بعض المطربين القدماء أمثال معبد وسواه وذلك نحو قوله من بحر الكامل[5]:

غنى على عود يميس به كما ∴ غنى التقابل معبد فى العود

---

(١) ديوان ابن حمديس: ١٢٤ ونموذج آخر ص: ١٩٤ .

(٢) المصدر نفسه: ١٦٠ ونموذج آخر ص: ٣١٤، لسان العرب ٣/ ١٦٩٠، ٣٦٨٧ والقعدى من الخوارج : هو الذى يرى القعود عن الحرب ويرضاها لغيره.

(٣) ديوان ابن حمديس: ٢٢٤ ونماذج أخرى ص: ٤٦٥، ٤٧٨، ٥٢٤

(٤) المصدر نفسه: ٤٢ ونماذج أخرى ص ١٦٧، ٢٨٧، ابن حمديس الصقلى: ٨٧ والجوشن :الدرع ،واللسب : اللسع واللدغ ــ المعجم الوجيز ص ١٢٧ ، ٥٥٦ .

(٥) ديوان ابن حمديس: ١٣٠ ونماذج أخرى ص: ٤٠٥، ٤٢٠، لسان العرب : ٣٥٨/١

وأخيرا فى المجال التراثى نجده يقتبس من أشعار الفحول القدماء ويشير إلى أسمائهم أحيانا: كامرئ القيس وزهير والمعرى وابن المعتز وأبىنواس وجرير والفرزدق، ثم سحبان (مصقع قبيلة وائل) الذى يضرب به المثل فى الفصاحة والبيان نحو قوله من بحر المتقارب [1]:

كأن الفرزدق فى طيرها ∴ يجيب على كل شعر جرير

وهكذا كانت حياة شاعرنا، حياة ملأى بالتوتر النفسى والقلق والاضطراب ، وحياة بهذه الصفة لجديرة أن يكون لها الأثر البالغ فى الإبداع الفنى، إذ إنه "لولا قلق الفنان لما أنتج، ولولا حيرة الموهوب لما أبدع"[2]، وتلك كانت شاعريته وتنوع معارفه التى ساعدته على التجويد والإبداع الفنى حتى حظى بهذا النبوغ فى شعره، ذلك الشعر الذى "لم يمت بفوات زمن صاحبه؛ لأن صاحبه استطاع بموهبته الخلاقة أن يكتب له البقاء والخلود"[3] ، وحتى نقف على حقيقة هذا الإبداع الفنى بشئ من التفصيل، ينبغى علينا تجلية السمات المنوطة به، ذلك ما يفصح عنه المبحث الثانى من تلك الدراسة .

(١) ديوان ابن حمديس: ١٨٤ ونماذج أخرى ص: ٢٦٩، ٣٥٨، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٣٥، ٤٦٦، ٥٥٤، شرح ديوان امرئ القيس: ٦٨، ٨١، شرح ديوان زهير بن أبى سلمى: ٥٣، ديوان أبى نواس: ٢٩، شروح سقط الزند ــ السفر الثانى ــ القسم الأول:٤٠، والثالث ١٢٤١، ديوان ابن المعتز: ٣٨٩، لسان العرب: ٦/ ٤٧٤٩ .

(٢) ابن حمديس الصقلى: ٦١، ٦٢ بتصرف.

(٣) المصدر نفسه: ٤٧ بتصرف.

المبحث الثانى
سمات الإبداع الفنى
أولا ـ المعانى والأفكار

كان شاعرنا (رحمه الله) شديد الحرص على التجويد للمعنى والإبداع فيه بدرجة لا تقل عن الإبداع فى اللفظ؛ لما بينهما من صلة وثيقة، وعلاقة وطيدة كعلاقة الروح بالجسد، انطلاقا من المقولة النقدية "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته"[1] ، حيث يقول من بحر الخفيف[2]:

روح معناك جسمه منك لفظ ∴ وعلى كل صورة يتصور
فإذا ما مقال غيرك أضحى ∴ عرضا فليكن مقالك جوهر

ومن الملاحظ فى معانيه الوضوح التام، تأثرا بسحر الطبيعة وبجمالها، سواء أكان ذلك فى وطنه الأم جزيرة صقلية، أم فى مغانى الأندلس وربوعها، ومن ثم لم يكن هناك مجال للمبالغات إلا نادرا، وذلك من منطلق "إظهار البراعة الذهنية فى مجال المدح: تقديرا للممدوح، أو فى مجال الوصف؛ إعجابا بالموصوف"[3].

فمن مبالغاته فى الممدوح: وصفه لجود المعتمد ونواله بأن الأرض بأسرها لو تجسدت فى كف سائل، ما احتاجت بعد العطاء إلى شئ من ماء السماء، حيث يقول من بحر البسيط [4]:

لو أضحت الأرض يوما كف سائله ∴ لم تفتقر بعد جدواه إلى مطر

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ١٢٤ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ٢٠٤ .
(٣) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٣٩٣ بتصرف.
(٤) ديوان ابن حمديس : ٢٠٧ .

كما وصف شجاعة الحسن بن على بن يحيى فى الحروب، ومدى ثقته بالنصر على الأعداء، بأن الله نفسه أبى إلا أن يحقق له ذلك، حيث يقول من بحر الطويل [1]:

أبى الله إلا أن يكون لك النصر ∴ وأن يهدم الإيمان ما شاده الكفر

ومن مبالغاته فى الموصوف: وصفه لمدى حدة السيف ومضائه بأنه يخرج روح الخصم بمجرد دخوله الجسد، حيث يقول من بحر الطويل[2] :

له دخلة فى الجسم تخرج نفسه ∴ قبيل خروج الحد منه عن الجسم

كما يصف الجواد فى سرعته، بأنه بمجرد أن ينطلق بوثباته المتلاحقة يضج بالشكوى؛ لأن الأرض تضيق عليه بما رحبت، فيقول من بحر الكامل[3]:

ألقى على الأرض العريضة أرضه ∴ ثم اشتكى ضيقا لها بوثوبه

مما تجدر الإشارة إليه أن مهارته لم تقتصر على المبالغات فقط فى المعانى، بل اتخذت عدة مظاهر أخرى، تتمثل فى اللجوء إلى الطرافة تارة، والابتكار تارة أخرى، والتحسين التجميل تارة ثالثة كما يلى:

أما اللجوء إلى الطرافة فها هو ذا يقبل على الطبيعة ويشبه بعض نباتاتها فى الاعتدال بقامات الملاح ذوات الحسن والجمال، وقد بدت الطبيعة مرحة طروبا، فالنشوة تسرى فى الأغصان، والفتنة تأسر كل جنان ، حيث يقول من بحر الرمل [4] :

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٥٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٤١٧ .
(٣) المصدر نفسه : ١١ .
(٤) المصدر نفسه: ٨٤ .

أرضع الغيم لبانا بانه ∴ فتربت فيه قامات الملاح
كل غصن تعترى أعطافه ∴ رعدة النشوان من كأس اصطباح

ومن الطرائف أيضا ما يعرف بتراسل الحواس، ها هو ذا يعطى الأذن وظيفة العين، حين يصف حدة السمع فى الجواد فيقول من بحر الطويل[1]:

كأن له فى أذنه مقلة يرى ∴ بها اليوم أشخاصا تمر به غدا

وإمعانا فى الطرافة نجده يلجأ إلى التراسل بين حاسة وما يناقضها، فمن المعروف أن الجس لأى شئ يكون بحاسة اللمس عن طريق اليد، لكنه جعل ذلك للعروق وهى ليست من الحواس، فيقول من بحر المتقارب[2]:

كأنى من البعد إذ شمته ∴ جسست بعرقى عرقا نبض

ولم يكتف بذلك، بل يبهرنا بمدى براعته حين يلجأ إلى التراسل لا بين الحواس كما عهدنا، وإنما بين الجوارح، حين يصف جمال يد الساقية للخمر، حال حملها الكأس والطواف بها، وكأنها فم ينطق بالدلال من شدة سحرها، فيقول من بحر الكامل[3]:

وكأن يدها فم متكلم ∴ بالسحر فيه مقول المشراب

وأما اللجوء إلى الابتكار، فمن ذلك: تخيله أن فى التقبيل لمن يهوى إغناء عن الماء الزلال، كيف لا! وهو المعين له على نوائب الأيام. والراوى غلل الشوق والهيام ، حيث يقول من بحر الرمل[4]:

بت منها مستعيدا قبلا ∴ كان لى منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما ∴ لم يكن فى قدرة الماء القراح

(١) ديوان ابن حمديس: ١٤٤ .
(٢) المصدر نفسه: ٢٩٣ .
(٣) المصدر نفسه : ٢١ .
(٤) المصدر نفسه : ٨٢ بتصرف .

وفى مقام آخر يبرز جمال العيون فيجعل تكحل من يهوى فضلة وزيادة على كحل الجفون الطبعي ، فيقول من بحر الكامل[1]:

زادت على كحل الجفون تكحلا ∴ ويسم نصل السهم وهو قتول

وأخيرا يصف مجلس شراب فى وقت الغداة، فيشبه الليل بميت فارق الحياة، وقد بشر الصباح بنعيه إلى الغواة، ثم يؤكد دعوته إلى البكور، قبل أن ترشف الشمس ريق الحسان من ثغور أزاهير الجنان فيقول من بحر السريع[2]:

قم هاتها من كف ذات الوشاح ∴ فقد نعى الليل بشير الصباح
باكر إلى اللذات واركب لها ∴ سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ∴ ريق الغوادى من ثغور الأقاح

وأما اللجوء إلى التحسين والتجميل فقد اتخذ عدة صور: تارة يجمع بين النقيضين لشئ واحد فى آن واحد وذلك بإبراز المستحيل فى صورة الممكن، وتلك براعة ذهنية فائقة، ها هو ذا يصف حال تماثيل الطيور الصماء الخرساء التى تكاد تنطق حين تزق الماء من أفواهها، فيقول من بحر البسيط[3]:

خرس تعد من الفصاح فإن شدت ∴ جعلت تفرد بالمياه صفيرا

ويشاهد تماثيل الآساد فى القصور، ويلاحظ مدى الدقة والبراعة فى صنعها، لدرجة تجعلها تكاد تتحرك من سكونها، فيقول من بحر الطويل[4]:

لها حركات أودعت فى سكونها ∴ فما تبعت فى نقلهن يد رجلا

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٥٥٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٨٩ بتصرف والأقاح جمع أقحوان : وهو نبت زهره أصفر أو أبيض ،وورقه كأسنان المنشار ـ المعجم الوجيز: ٢١ .
(٣) ديوان ابن حمديس: ٥٤٨ .
(٤) المصدر نفسه: ٣٧٩ ونموذج آخر: ٥٤٧ .

إلى غير ذلك من النماذج : كالجمع بين النار والماء فى زهرة النيلوفر الحمراء، وكذوبان الحديد بدون نار، وكالجمع بين الرضا والغضب فى ضوء الشمعة الذى يسرى فى الدجى، وكالجمع بين الحركة والثبات، وبين الرمل والحصى، وبين الذهب والفضة حال دوران الرحى ، فمثال الجمع بين النار والماء فى زهرة النيلوفر الحمراء قوله من بحر السريع[1]:

اشرب على بركة نيلوفر ∴ محمرة النوار خضراء
كأنما أزهارها أخرجت ∴ ألسنة النار من الماء

وتارة يستخدم حسن التعليل، مستغلا براعته الذهنية أيضا فى الإتيان بعلة غير ممكنة. وذلك باعتبار لطيف يؤكد قوة التصور، وبراعة التخيل، ها هو ذا يتخيل صوت خرير النهر الصافى أثناء مروره على الحصى وقد صافحته الصبا، يشبهه ـ والحال هذه ـ بالمريض الذى يشكو آلامه؛ لأن الحصى جرحه بأطرافه ، فيقول من بحر الطويل[2] :

ومطرد الأجزاء يصقل متنه ∴ صبا أعلنت للعين ما فى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى ∴ عليها شكا أو جاءه بخريره

وفى مقام آخر يصور مدى الذل المسيطر على تماثيل الأسود حول بركة المنصور، ويعلل ذلك بعلة (الجزاء من جنس العمل). فقد عوقبت بانتزاع النفوس من الأجسام؛ لأن تلك النفوس طالما تفننت فى ظلم الأنام ، حيث يقول من بحر الكامل[3]:

فى بركة قامت على حافاتها ∴ أسد تذل لعزة السلطان
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها ∴ فلذلك انتزعت من الأبدان

---

(١) ديوان ابن حمديس: د وينظر نماذج أخرى ص: ٢٤، ٢٥، ٤٧د
(٢) المصدر نفسه: ١٨٦ .
(٣) المصدر نفسه: ٤٩٦ .

وتارة يستخدم التشخيص ، حين يشبه الزرافة أثناء التبختر فى مشيها، وكأنها تزهو بجمالها ــ بالعروس تزف إلى بعلها، ولم يكتف بذلك، بل يختار لها اسم (فاطمة) مستوحيا شطرا من شعر امرئ القيس، يردده الكثيرون من حولها، إعجابا بدلها وظرفها فيقول من بحر الطويل[1]:

وتحسبها من نفسها إن تبخترت ∴ تزف إلى بعل عروسا وتنجلى
وكم منشد قول امرئ القيس حولها ∴ أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

هذا بخصوص المعانى ومدى الاهتمام بها، وأما بخصوص الأفكار ومدى صلتها بالوحدة الموضوعية فى القصيدة، "فقد كان الشاعر يحشر أكثر من موضوع، وهذا وإن كان ديدن العماليق من الشعراء أمثال : المعرى والمتنبى والبحترى وأبىتمام وابن زيدون وأضرابهم" [2] إلا أنه يؤكد فقد الوحدة الموضوعية من جهة، واضطراب الأفكار من جهة ثانية، فلا تواؤم ولا انسجام بين الموضوعات .

وحين ننعم النظر فى شعره ، نجده تارة ينتقل من حال الرضا والاستسلام، إلى حال القلق لدرجة التشاؤم، فبعد تسلحه بالصبر، وقاية من النوائب، إذا به يرمى الدهر والأصحاب بالخيانة، وينظر إلى الحياة بمنظار قاتم، يريه الماء العذب علقما، ثم يبالغ فى ذلك لدرجة التخطئة لكل من يعتقد غير ذلك، حيث يقول من بحر الطويل[3]:

تدرعت صبرى جنة للنوائب ∴ فإن لم تسالم يازمان فحارب
أتحسبنى أنسى ومازلت ذاكرا ∴ خيانة دهرى أو خيانة صاحبى

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٣٨٢ .
(٢) ابن حمديس الصقلى : ٣٩ بتصرف.
(٣) ديوان ابن حمديس : ٢٨ ، ٢٩ بتصرف والخضارم بضم الخاء : الماء الكثير الزاخر ــ المعجم الوجيز : ٢٠١ .

ويارب نبت تعتريه مرارة ∴ وقدكان يسقى عذب ماء السحائب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة ∴ قضى بخلاف الظن عند المشارب

ويستولى عليه التشاؤم حتى فى مقام الغزل والاستجلاء لمحاسن المحبوب، نجده تارة يأتى بتعبيرات عنيفة: كالقسوة والقتل والنزيف وسواد الليل، فيقول من بحر الطويل[1]:

وذى قتلة بالراح أحييت سمعه ∴ بأجوف أحيته ميتته ضربا
فهب نزيفا والنسيم معطر ∴ فما خلته إلا النسيم الذى هبا
شربنا على إيماض برق كأنه ∴ سناقبس فى فحمة الليل قد شبا

كما يلجأ إلى البكاء، والفقد لريعان الشباب، والصد والهجر من جانب الحسان، ها هو ذا إثر تعدده أحوال هزيمته إزاء من يهوى يقول من بحر الرمل[2] :

كيف لا أبكى بهذا كله ∴ وأنا الفاقد ريعان الشباب
صدت البيض عن البيض أما ∴ كان بين الشيبهين انجذاب

وتارة ينتقل فجأة من الغزل إلى الرثاء، كما فى رثائه لجاريته (جوهرة) إذ إنه بعد الوصف لرشاقة قدها، وجمال ثغرها. وصغر عمرها، ونضارة حسنها، يحدثنا عن العناق لقبرها، مستطردا فى رثائها. وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر البسيط[3]:

أيارشاقة غصن البان ما هصرك ∴ وياتألف نظم النثر من تثرك؟

وإذا أتينا إلى مقام المدح وبخاصة فى المطولات ، نجده تارة ينتقل فجأة وبدون مقدمات من المدح إلى وصف مأدبة طعام، كما

(١) ديوان ابن حمديس : ٥١ .
(٢) المصدر نفسه ٦٤ يريد صدود الحسان عن الشعرات البيض .
(٣) ديوان ابن حمديس: ٢١٢ والهصر يعنى الكسر ـ المعجم الوجيز ٦٥٠ .

حدث فى مدحه للمعتمد بن عباد، إذ إنه بعد أن أفاض فى مدحه يفاجئنا بالوصف لمأدبته فيقول من بحر الرمل[1]

أبدا يدعو إلى مأدبة ∴ حوم الوحش عليها تفتدى

وتارة أخرى ينتقل بنا من فلسفة ذات اتجاه تفاؤلى إلى وصف معركة حربية وأدواتها، ثم ينتقل إلى الوصف لأجواء ليلة ساهرة، يسبح فى عالم الجمال، ويحلق فى أفق الخيال، وفجأة يهوى بنا إلى الواقع المرير، حين يتذكر الوطن السليب ، وإن شئت فقل الجنة التى أخرج منها قسرا، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر المتقارب[2]:

قضت فى الصبا النفس أو طارها ∴ وأبلغها الشيب إنذارها

لقد ساد هذا الاضطراب شعره حتى فى معظم التشبيهات: تارة يشبه المحسوس بالمعقول ، كتشبيهه السيف حال الإخراج من غمده، بالروح حال انتزاعها من الجسد، حيث يقول من بحر الكامل[3]

ومهند عجن الحديد لقينه ∴ فى الطبع نيران ملنن رياحا
روح إذا أخرجته من جسمه ∴ دخل الجسوم فأخرج الأرواحا

وكتشبيهه عطايا الممدوح بالأمانى التى صنعت منه قمريا يشدو نشوة وطربا، فيقول من بحر الكامل[4]:

طوقتنى مننا فرحت كأننى ∴ بالمدح قمري له إفصاح

وتارة أخرى، يشبه المعقول بالمحسوس: كتشبيهه جريان الحسن فى خد من يهوى، بجريان الندى فى الوردة الغضة المتفتحة، حيث يقول من بحر الطويل[5] :

---

(١) ديوان ابن حمديس: ١٤١ .
(٢) المصدر نفسه : ١٨٠ .
(٣)المصدر نفسه : ٩٤ .
(٤)المصدر نفسه : ١٠٥ .
(٥) المصدر نفسه ١٠٩

رقيقة ماء الحسن يجرى بخدها ∴ كجرى الندى فى غصن ورد مفتح

وكتشبيهه أناة الممدوح فى ساحة خلقه الأنيق، بالزهر الجميل فى الروض النضير، فيقول من بحر الرمل [1]:

وأناة أرسيت فى خلق ∴ كنظير الزهر فى الروض المجود

إن أردنا تفسيرا لهذا الاضطراب الواضح، لا نجد سوى حالة القلق المسيطرة عليه، ومن ثم خلفت له تلك النفسية الحائرة غير المستقرة، وما هذا كله إلا صدى وأثر للأحداث والنوائب التى ألمت به ولازمته طوال حياته، وبما أن النفس البشرية جبلت على التجديد، والخروج من هذا المناخ الكئيب، بغية الترويح والترفيه، فقد لبى الشاعر نداءها، واستجاب لرغبتها، وذلك من خلال الهروب إلى عالم الأفكار الطريفة الممتعة التى تضفى على النفس المكلومة بشرا وسرورا، وسعادة وحبورا.

ها هو ذا يقرع ناقوس الخطر لمشكلة طالما عانت منها الأوساط الرجعية، وهى إقبال الكهول الطاعنين فى السن على الزواج من الصغيرات البريئات، الفكرة فى حد ذاتها طريفة، والأطرف منها جهل هؤلاء الكهول بمدى نفور وكراهية الصغيرات لهن، ومن ثم كان استهجان الشاعر لهذا النوع من الزواج غير المتكافئ، وحسبه ما فيه من ضعف ومشيب أفاض عليه النهار، ويرى أنه لا يجلب على صاحبه سوى العار والشنار، فيقول من بحر المتقارب [2]:

أرى الشيخ يكره فى نفسه ∴ مشيبا أفاض عليه النهارا
وضعفا يهد قوى جسمه ∴ وينقل منه خطاد قصارا
فكيف يجشمها طلفة ∴ يطير بها القلب عنه نفارا
وعار على الشيخ تقريبه ∴ فتاة ترى قربة منه عارا
وقد جبل الغانيات الصغار ∴ على بغضهن الشيوخ الكبارا

(١) ديوان ابن حمديس: ١٥٦ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٦٦ .

ويشخص يوما شمعه مضيئة تفنى نفسها لتسعد غيرها، فيشبهها بنفسه تشبيه محب مدنف يعانى من نار الجوى وحرقة الشوق، ثم يمعن فى الطرافة حين يشبه ذؤابتها بإصبع يشكو حالها، ولا يكتفى بهذا، بل يجرد منها شخصا يتجاوب معه، يحس بآلامه، ويقاسمه مشاعره فى السقم والأرق والصبر والصمت والإطراق واللون والدموع، فيقول من بحر البسيط[1]:

ونورية للنار فيها ذؤابة ∴ تذوب بها ذوب النضار المميع
تكتم ما تلقاه إلا شكية ∴ تعبر عنها فى إشارة إصبع
وتحسبها تلقى ضروبا من الجوى ∴ تحكم فيها من غرامى المنوع
كسقمى وإيراقى وصبرى وموقفى ∴ وصمتى وإطراقى ولونى وأدمعى

وفى أثناء تنزهه فى رحاب الطبيعة الغناء، ترفيها عن نفسه، يمر على بركة وقد غرقت فيها باقة من الزهور، أصابها الذبول، عندئذ تحرق قلبه، حزنا وأسى عليها، فأخذ يرثيها مشبها إياها بالجوهرة الغارقة، ولما كانت الجواهر تؤخذ من الأصداف فى عمق البحار، استغل هذه الفكرة الطريفة، وتمنى من كل قلبه لو أن الأصداف صانتها من تلك الأخطار، وفى هذا يقول من بحر البسيط[2]:

ياباقة فى يمينى للردى بذلت ∴ أذاب قلبى عليك الحزن والأسف
ألم تكونى لتاج الحسن جوهرة ∴ لما غرقت فهلا صانك الصدف

هكذا كان اهتمام الشاعر بالمعانى والأفكار، وقد لحظنا مدى الإجادة ونهاية الإبداع، حين تمثل ذلك فى الوضوح التام للمعانى والمبالغات النادرة، ثم العمد إلى الطرافة والابتكار والتحسين والتجميل، أما الأفكار فإن كان الطابع العام عليها هو الاضطراب، إلا أنه آثر الهروب إلى الطرافة بقصد الترويح عن النفس المكلومة التى هدتها النوائب وزلزلتها الأحداث، إذا كان الأمر كذلك ، فماذا عن الألفاظ والأساليب؟ هذا ما سنعرفه من خلال الفكرة الآتية:

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٣١١ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه: ٣١٥ .

ثانيا ـ الألفاظ والأساليب

حين ننعم النظر فى شعره، نلحظ أن الطابع العام على ألفاظه يتمثل فى "الرقة والدقة وعدم الفضول، والسهولة والوضوح، فهو شاعر ماهر يعبر عن معانيه بالألفاظ النفسية الرفيعة"[1] وقد بدا ذلك جليا فى مقام الزهد والغزل.

ففى مقام الزهد نجده يهدى النصيحة لنفسه تصريحا، ولسواد تلميحا، بضرورة أن يأخذ المرء من نفسه العظة والعبرة وبخاصة عندما تتقدم به السنون، ثم يحذر من صحبة الدنيا، فهى بئست الصاحبة، إذ سلبته نضرة الشباب، وها هو ذا الموت قادم على الأبواب، وفى النهاية يأمل من كل مذنب أن يذيب القلب حسرات، والعيون عبرات، على كل ما مضى من هفوات، عسى الله أن يعفو عن الزلات، ويختم له بالصالحات، كل ذلك من خلال ألفاظ تذوب رقة وسلاسة ووضوحا، دون حاجة إلى المعاجم اللغوية، فلا غموض ولا إبهام . حيث يقول من بحر المتقارب[2]:

وعظت بلمتك الشانبه ∴ وفقد شبيبتك الذاهبه
وسبعين عاما ترى شمسها ∴ بعينك طالعة غاربه
وغرتك دنياك إذ فوضت ∴ إليك أمانيها الكاذبة
أصاحبة خلتها ؟ إنها ∴ بأحداثها بئست الصاحبه
أما سلبت منك برد الشباب ∴ فهل يسترد من السالبة
وإن المنية من نحوها ∴ عليك بأظفارها واثبة
فياحاضرا أبدا ذنبه ∴ وتوبته أبدا غائبه
أذب منك قلبا تجارى به ∴ سوابق عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا ∴ وأتعب إثباته كاتبه

(١) بتصرف ـ قضايا أندلسية: ٢٢٢، وفيات الأعيان: ٣/ ٢١٢. الذخيرة: ج٧ ق٤ م١ ص٣٢٠ .

(٢) ديوان ابن حمديس: ٤٠، ٤١ بتصرف، ونماذج أخرى: ٦٧، ١٠٧، ٥١٦، ٥١٨، ٥١٩ .

عسى الله يدرأ عنك العقاب ∴ وإلا فقد ذمت العاقبة

وفى مقام الغزل نجد نفس الرقة والسلاسة بدرجة تريح النفوس، وتسعد القلوب، ها هو ذا لا يمل من يهوى، لاسيما بعدما شبهه بالظبى الغرير الذى ينفر خوفا من ظله إذا مشى، ثم يؤثره باسم (غزال) إيماء إلى مدى سحره، وبالغ رقته، وفى النهاية يلخص نظرته فيه بأنه أحد أمرين : إما أنه محل للحسن دون سواه، وإما أن الحسن محله دون ما عداه، وأخيرا يستقر الرأى على أن الحسن كله فى محياه ، هكذا يحدثنا بكل رقة وعذوبة فيقول من بحر الرمل[1]

ملنى من لا أمله ∴ وأذاب القلب دله
رشأ ينفر خوفا ∴ كلما ما شاه ظله
ياغزال الاحرم اللـ ∴ ـه دمى وهو يحله
إنما الحسن محل ∴ لك أو أنت محله
بعضه فى أوجه النا ∴ س وفى وجهك كله

مما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الرقة والسلاسة فى الألفاظ هى ديدن الشاعر ومبدؤه الذى لا يتخلى عنه حتى فى المواطن التى قد تستدعى غير ذلك، فالمحبوب عندما يستمرئ الصد والهجر والقسوة على من يهوى، بدرجة تجعله دائما بين الخوف والرجاء، الخوف من الهجر والخصام، والرجاء فى الوصل والهيام، ورغم هذا كله. نجد الشاعر يغلف شكواه بالتماس العذر للمحبوب، فقد منحه الله جمال الثغر الذى يحاكى الجمان لمعانا ونقاء، وجمال الخد الذى يحاكى العقيق توردا وصفاء، هكذا يترجم شكواه بشكل مهذب رقيق فيقول من بحر الكامل[2]:

أصبحت عندك أرتجى وأخاف ∴ ما هكذا يتألف الألاف
ياكيف بات علىّ قلبك جامدا ∴ يقسو فليس يلينه استعطاف

(١) ديوان ابن حمديس: ٣٦٣، ٣٦٤ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه: ٣١٥ .

وجمان ثغرك رف من لمعانه ∴ وعقيق خدك رانق شفاف
لم تنصفينى فى معاملة الهوى ∴ وأعز شىء فى الدمى الإنصاف

وكما هو الحال فى مقام الشكوى، نجد ما هو أكثر منه استدعاء لغير الرقة والسلاسة، بيد أن الشاعر ما زال عند مبدئه بالحرص الشديد على تخير اللفظ الواضح، والبعد عن الألفاظ المستهجنة، أو الكلمات النابية، ويتمثل ذلك فى وصف ليالى اللهو والعربدة، أو اللجوء إلى الفكاهة والمداعبة[1].

ها هو ذا يمهد لمجلس شراب، وينتقى من الطبيعة طائر الحمام، وما يتميز به من سحر الهديل وروعة الجمال، فيقول من بحر الطويل[2]:

وناطقة بالراء سجعا مرددا ∴ كحسن خرير من تكسر جدول
مفردة فى القضب تحسب جيدها ∴ مقلد طوق بالجمان المفصل
إذا ما امحى كحل الدجى من جفونها ∴ دعتك إلى كأس الغزال المكحل

بالتأمل فى هذا المقطع نلحظ مدى البراعة فى الجمع بين جمال الصوت والشكل معا، حين شبه سجعها حال التكرير لحرف الراء بصوت الخرير الناشئ عن تكسر الجدول. هذا بالإضافة إلى جمال الطوق حول جيدها، وقد وشى بالألوان المتداخلة التى تحاكى حبات اللؤلؤ فى الصفاء والإشراق، ومن ثم أغراه هذا الجمال المركب إلى مجلس شراب للعقار التى تحاكى دم الغزال فى الاحمرار.

كما تبدو البراعة فى اصطفاء الألفاظ، والاحتراس بالقيود، ففى الإيثار لحرف الراء إيحاء بطبيعته التى تقتضى التكرير، وإذا كان مصدر ذلك هو الحمام، ففيه ما فيه من الجمال الكثير، وفى تقييد السجع بالترديد إيحاء بأن التكرير كان على هيئة مقاطع صوتية

(١) ابن حمديس الصقلى: ٢٣، ٤٠ بتصرف.
(٢) ديوان ابن حمديس: ٣٦١ .

متتالية، وهذا بلا ريب له وقعه الطيب بلا مدافع، وفى تقييد الخرير بالحسن، والجدول بالتكسر، إيحاء بالتجسيم للصوت الجميل ذى الرواء، وكأن الخرير يمتع مسامعنا من جميع الأنحاء، وفى تقييد الجمان بالمفصل، إيحاء بمدى قدرة الخالق وإتقان صنعه فى توزيع درجات الألوان اللؤلؤية حول الجيد بشكل يشرح الصدور سعادة وسرورا، ويملأ النفوس بشرا وحبورا.

كما نلحظه يصف إحدى تلك الليالى اللاهية وصفا رقيقا مهذبا، فهى صفو الحياة لو دامت ساعاتها القصار، ومن ثم كان التمنى بجمود الزمن ليل نهار، ثم يبرر هذا كله بهزيمة الأحزان، من خلال اللهو والركوب فى كل زمان، حيث يقول من بحر المنسرح[1]:

يا ليلة فزت إذ ظفرت بها ∴ لأنت صفو الحياة لو دمت
هزمت فيك الهموم فانهزمت ∴ بكر شقر الكئوس والكمت
وكاد ليلى يكون من قصر ∴ غير زمان مجدد الوقت

وحتى لو كان اللهو والعربدة بالراقصات المعطرات، فشاعرنا مبدؤه دائما على ثبات، ها هو ذا يشبههن فى شدوهن بهديل الحمام. إشارة إلى الرقة والطرب وسحر الأنغام، كما يشبههن فى جر أذيالهن المزركشة بالطواويس، ثم يمعن فى الرقة والعذوبة حين يصف تلك الطواويس بالبذخ ، وفى هذا إيحاء بأيام النعيم الناضرات، وبلهنية العيش المنعكس على هؤلاء الراقصات، حيث يقول من بحر الطويل[2]:

ومن راقصات ساحبات ذيولها ∴ شواد بمسك فى العبير تضمخ
كما جررت أذيالها فى هديلها ∴ حمائم أيك أو طواويس تبذخ

(١) ديوان ابن حمديس: ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه: ١١٢ .

هذا عن الرقة فى مقام اللهو والعربدة، أما عن الرقة والعذوبة فى مقام الفكاهة والمداعبة، فقد كان حريصا على الإيثار للألفاظ المشعة الموحية بمناخ الفكاهة، مثل: الغناء والربابة والشراب والرقص، وذلك من خلال وصفه للبق والبراغيث والبعوض، بتعاونها على تنغيص نومه، وطول ليله، حتى عدت عليه كالذئاب شراسة، فجعلت من دمه خمرا، وأدمنته حتى زادها سكرا، وإذا بالبعوض يتغنى ويمسك الربابا، والبق والبراغيث يتراقصان إطرابا[1] ، ويبدو أن البق بخاصة قد زاده أذى وألما، ولذلك كرر التفكه به فى موطن آخر بألفاظ واضحة ، دون تهكم سافر، أو لفظ ناب، أو كلمة معجمية، اللهم إلا كلمة (سماق) [2] وهذا أمر نادر الحدوث لا يقدح فى المبدأ الذى التزم به، وكل ما قاله فى ذلك: أن الأرق منعه النوم، وأطال عليه الليل، وانتشر البق كالعسكر فى كل الأنحاء، واشتد لسعه كالنار بلا إطفاء، فضلا عن الإيثار للألفاظ الموحية بالأذى مثل: إيراق، عساكر، البق، زاحفة، طاعنة، لسعة، النار، الإحراق، حيث يقول من بحر البسيط[3]:

يا ليل هل لصباحى فيك إشراق ∴ فقد نفى النوم عن عينى إيراق
عساكر البق نحوى فيك زاحفة ∴ كأنما بث وسط البيت سماق
من كل طاعنة الخرطوم سارية ∴ كأن لسعتها بالنار إحراق

هكذا كان الطابع العام المسيطر على ألفاظ الشاعر، رقة وسلاسة، وجلاء ووضوحا فى المواطن التى تستدعى ذلك: كالزهد والغزل، والتى قد لا تستدعى ذلك : كالشكوى واللهو والفكاهة، لكن

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٨٩ ، وقد سبق التمثيل لذلك فى المبحث الأول من تلك الدراسة.

(٢) السماق : حبيبات صغيرة حمراء تؤخذ من شجر القفاف والجبل وتطبخ لتؤكل ـ لسان العرب: ٣/ ٢٠٩٩ .

(٣) ديوان ابن حمديس : ٣٣٥ .

ليس معنى هذا أن شعره خلا من الألفاظ المعجمية الغريبة الجزلة الفخمة القديمة، كلا! فقد طعم بها شعره لكن بقدر وفى أضيق الحدود بدافع إبراز البراعة الذهنية من جهة، ومنافسة الشعراء المشارقة من جهة أخرى، والمحاكاة للقدماء من جهة ثالثة، وكأنه يريد أن يتقرر فى الأذهان: أن الأمرين لديه سواء، فكما أجاد وأبدع فى الإتيان بالرقيق العذب الجلى من الألفاظ، فهو أيضا الشاعر "الماهر فى التعبير عن معانيه بألفاظ فخمة جزلة، سواء أكانت غريبة أم قديمة"[1] ومما يعضد ذلك تصريحه بمدى تمكنه من مفردات اللغة والإحاطة بغريبها، والاستفادة بما تيسر من معاجمها، حيث يقول من بحر السريع[2]:

وجدى غريب ما أرى شرحه ∴ يوجد فى العين ولا فى الصحاح

هذا ولثقته المطلقة من نفسه، نجده يباهى بمقدرته البارعة على هذا الإغراب، بشكل يفوق الفحول من القدماء، وأن هذا الأمر لديه جد يسير، وإن خفى وشق فهمه على الكثير، فيقول من بحر الكامل[3]:

أما بناتى المفردات فإنها ∴ فى الحسن أشهر من بنات حبيب[4]
وأنا أبو الحسناء والغراء إن ∴ أغرب فما الإغراب لى بغريب

---

(١) بتصرف ــ تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/ ٣٢، ابن حمديس الصقلى: ٦٦ .

(٢) ديوان ابن حمديس : ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٦٢ بتصرف .

(٤) المقصود ببنات حبيب: شعر أبىتمام الشاعر العباسى الذين كان "يطلب الإغراب فى فنه حتى يسبغ على شعره كل ما يمكن من أيات الفتنة والروعة" الفن ومذاهبه فى الشعر العربى: ٢٢٦ .

وشاعرنا محق وصادق فى كل ما قرر حتى بلغ حد الزهو والغرور لدرجة أن الكواكب فى السماء تسمع منطقه، وتصيخ لغرائبه، حيث يقول من بحر الطويل[1]:

متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى ∴ تصخ فى مقالى لارتجال الغرائب

بيد أننا نتساءل: كيف الغرور وشاعرنا نحسبه من أهل التقى والصلاح نشأة وسلوكا كما علمنا من سيرته؟، الحق أنه ليس غرورا بالمعنى المعهود حيث الازدراء للآخر، وإنما هى العزيمة الصلبة والإرادة القوية على التحدى، من منطلق الثقة المطلقة وعزة النفس، التى أفصح عنها فى قوله من بحر الطويل[2]:

وما هى إلا النفس تفنى حياتها ∴ مصرفة فى كل سعى متدر
وما ضعضعتنى للحوادث نكبة ∴ ولا لان فى أيدى الحوادث عنصرى

والدافع لهذا كله يتمثل فى "الأزمة الحادة من القلق والاضطراب الذى ألم به من جراء النوائب والخطوب التى هدت بنيانه، وزلزلت كيانه. هذا بالإضافة إلى عدم الانسجام مع الآخرين فى مهجره إبان غربته. فكان ما كان"[3] .

بقى أن نقرر أن هذا النوع من الألفاظ المعجمية أو القديمة على سبيل الاحتذاء والمحاكاة، قد انتشر بشكل ملحوظ فى المطولات من مدائحه، وفى الوصف للحروب وأدواتها، ومن أمثلة ذلك: الإيثار لهذه الكلمات "الندس: الفهم الفطن، العرامس، جمع عرمس وهى الناقة الصلبة، البسابس: الصحارى، الضبارم: الشديد الخلق من الآساد، القسطان: البياض يتغشى دن الخمر، السميذع: الشجاع الجسور، بالإضافة إلى غير ذلك من الكلمات، مثل: المها، الغيل.

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه: ٥٥٠، ٥٥١ بتصرف.
(٣) ابن حمديس الصقلى: ٦٨ بتصرف.

قضيب البان، الربع، المراتع، السبسب، العيس، النجائب، النوى، الصارم، الصمصام، الحسام، العضب، النقع، العجاج، الرحل، الكلكل، الطلل، البيد، اليباب، المنجرد، الكثيب، النقا، الدن"[1].

هذا بالنسبة للألفاظ ، أما بالنسبة للأساليب فالطابع العام لها أيضا هو "السهولة والرقة والوضوح والجمال دون تكلف ولا إعنات"[2] مع الاحتفاظ بالجزالة والفصاحة وقوة الحبك وجودة السبك، وحين نصنفها فنيا من حيث مدى المواءمة للموضوعات، نجده تارة يستخدم الأسلوب الإنشائى فى مقام المدح للملوك والأمراء، حتى يتناسب ذلك مع سطوة الملك وعز السلطان.

ها هو ذا يمدح المعتمد بن عباد فيقول من بحر البسيط[3]:

يا معليا بعلاه كل منخفض ∴ ومغنيا بنداه كل مفتقر
هل كان جودك فى الأموال مقتنيا ∴ آثار بأسك فى أسد الوغى الهصر

نلاحظ استخدام أسلوب النداء فى البيت الأول، وفى هذا إيماء إلى جلال الملك الذى يجمع بين القوة فى الهيجاء، والجود والعطاء. كيف لا! وهو الذى استطاع بشجاعته أن يعلو كل ما عداه، وبكرمه ألا يضن بعطاياه، ثم يستخدم أسلوب الاستفهام فى البيت الثانى؛ ليقرر هذه الثنائية ويؤكدها فى الأذهان .

ومن الجدير بالذكر، أن شاعرنا كان مغرما باستخدام أساليب الأمر، وبخاصة فى ختام قصائده تلك؛ ليؤكد بها سطوة الملك وعز

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٣ ــ ٢٨٥، ٢٩٣، ٣٠٧ ــ ٣١٠ ، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٩، ٣٣٦ ــ ٣٣٩، ٣٤١، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٨، ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٢٥، ٤٥٨، ٤٧٧، ٥٠٣ .

(٢) بتصرف ــ قضايا أندلسية: ٢٢٥، ابن حمديس الصقلى: ٢٣ .

(٣) ديوان ابن حمديس: ٢٠٨ .

السلطان، ولما فيها من الإيحاء بالحسم والحزم ما بقى الزمان[1] ومما يدل على ذلك، مدحه الأمير أبا الحسن على بن يحيى بقصيدة ختمها بهذا البيت المكون من ثمان كلمات كلها أفعال أمر؛ لتقرير ما سبق، حيث يقول من بحر المتدارك[2]:

فانصروا فخر وادر وأشر ∴ وأبر وأجر وأغر وسد

وتارة يستخدم الأسلوب القصصى للإثارة والتشويق للمتلقى الذى يجد فيه جمالا وإشراقا، وطلاوة وحلاوة، لا تنفره ولا تضجره، بل تجبره على التواصل لقراءة هذا السحر الحلال، ليست مجرد قراءة، وإنما هى قراءة مصحوبة بسعادة البال، ومن ثم يكون الانفعال، والتأثر فى التو والحال.

ها هو ذا يشكو لوعة فراق من يهوى، مخاطبا الطلل الذى كان يضمه فيقول من بحر الرجز[3] :

يا منزلا تنشره يد البلى ∴ نشر يمان خلق لم يرقع
بالله خبرنى أأنت ربعهم ∴ أم أنت مرعى للظباء الرتع
فقال : بل ربعهم وإنما ∴ تحملت عنى شموس مطلعى
أدرنة الغوط سترن ظبية ∴ تدير عينى فتنة فى البرقع[4]
سيف وسهم لحظها ولهذم ∴ يا عجبا لفتكها المنوع

بالتأمل نلحظ الاتكاء على عنصر التشويق من خلال هذا الأسلوب القصصى المتمثل فى الحوار مع المنزل الذى كان يضمها، ثم صار طللا باليا وأثرا واضحا إثر فراقها، ثم يستحلفه بالله سائلا

(١) ديوان ابن حمديس: ٢١١، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٧٢، ٣٩٣، ٤٣٨، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٣ .
(٢) المصدر نفسه: ١٦٢ .
(٣) المصدر نفسه: ٣٠٠، ٣٠١،ونماذج أخرى: ١٨، ٣٠٧، ٤٢٨ .
(٤) التعبير بأدرئة الغوط: يقصد به رحابة المكان الذى كان يضم المحبوبة، واللهذم: الحاد من الرمح والسنان.

إياه: أأنت ربع الحسناء، أم مرعى الظباء، ويأتى الجواب بأنه الربع الذى كان يضم صاحبة الفتنة والجمال، والحسن والدلال، كما نلحظ البراعة فى انتقاء الأساليب الموحية ؛ فقوله (يا منزلا) أسلوب نداء وكأن المنزل شخص يعى ويعقل ويتجاوب معه ، ليشاركه مشاعره ويقاسمه أحاسيسه، وفى هذا ما فيه من التشويق للمتلقى الذى سرعان ما يستحضر ذاكرته ويمعن فى التمحيص، للوقوف على حقيقة هذا التشخيص، ثم يكشف من عنصر الإثارة واليقظة للمتلقى باستخدام أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى البيت الأول (يا منزلا تنشره)، ومن التكلم إلى الخطاب فى البيت الثانى (خبرنى أأنت)، وفى التعبير بقوله: (خلق لم يرقع) إشارة إلى أن عوامل البلى والفناء قد فعلت فيه فعلها لدرجة أنه كاد لا يعرفه، ومن ثم بادره بالسؤال: أأنت ربعهم أم أنت مرعى، وفى هذا إيماء إلى مدى الحيرة والذهول الذى ألم به من جهة، وتشويق آخر للمتلقى الذى ينتظر نوعية الجواب من جهة أخرى، ومما يدعم ذلك: إيثاره لأسلوب القسم (بالله خبرنى)، وفى هذا تأكيد للحيرة، وإبراز لما يعانى من حرقة الشوق ولوعة الفراق، وفى إضافة العينين إلى الفتنة إيماء بأن سحرهما قد بلغ مداه حتى درجة الافتتان، وفى الوصف للفتك بكونه منوعا، إشارة واضحة إلى أن تلك المحبوبة متعددة المحاسن، وكثيرة المفاتن، كما لا يخفى علينا دقة التعبير بقوله (يا عجبا لفتكها). دون قوله (يا عجبا لسحرها) إشارة إلى مدى تأثيرها البالغ فى كل من يهواها. وأن الأمر لا يتوقف عند حد الإعجاب فقط، وإنما تفتك به فتكا، كما أن فى التنكير للمنزل وللظبية، وفى الجمع للربع إيماء بالتعظيم للمحبوب وللمكان الذى سعد به .

وتارة نلحظه يستخدم الأسلوب السهل الممتنع لدرجة تكاد تقترب من النثرية، وذلك فى مقام الزهد ، وهذا أمر طبعي وبدهى،

حيث إن الزهد مقام العظة والاعتبار، والترغيب فى عمل الصالحات، والترهيب من الموبقات، وهذه كلها من ثوابت الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولن يتحقق ذلك إلا بسهولة ووضوح الأسلوب ، حتى تتمكن الموعظة من القلوب.

ها هو ذا يستنكر على المرء كيف يرجو أن يكون من السعداء. وأفعاله أفعال الأشقياء، عليه إذن أن يتوجه بالدعاء، عسى أن تناله رحمة السماء، فيقول من بحر المديد[1]:

كيف ترجو أن تكون سعيدا ∴ وأرى فعلك فعل شقى
فاسأل الرحمة ربا عظيما ∴ وسعت رحمته كل شى

وفى مقام آخر يدعو إلى تسليم الأمر لمن بيده الأمر سبحانه. وأن ما قدر سيكون، والدنيا بأسرها إلى زوال، وبعدها بعث وحساب. ويومها أين يكون المصير؟ هل إلى جنة فيها نعيم مقيم، أم إلى نار فيها عذاب أليم ، هكذا يحدثنا قائلا من بحر الخفيف[2] :

سلم الأمر منك لله واعلم ∴ أن ما قد قضى به سيكون
هكذا ينقضى الزمان إلى أن ∴ تشمل العالمين فيه المنون
وتقوم الموتى النيام إلى ما ∴ كحلت بالحياة منه العيون
بجنان يقيم فيها مقيم ∴ أو بنار فيها عذاب مهين

وبما أن السهولة فى الأسلوب بهذه الدرجة واجبة فى مقام الزهد، فهى أوجب فى مقام اللهو، حتى يصلح الأسلوب للطرب والغناء، ها هو ذا يتناسى همومه، وتداعبه أحلامه، حين ضمه مجلس أنس فى ليلة مرحة طروب، ويدور حوار بينه وبين إحدى الغانيات، وفى أثناء تبادل النظرات، أثيرت التساؤلات، وكان من بينها سؤال محرج، بيد أن الجواب كان أشد إحراجا، لاسيما أن اللقاء أسفر

(١) ديوان ابن حمديس: ٥٣٠ .
(٢) المصدر نفسه : ٥١٦ بتصرف.

عن الصد والجفاء، وهذا ــ لعمرى ــ شأن الحسناوات، فالصدود من طبع الغانيات، لندع شاعرنا وهو ينقل بأحاسيسه وقائع هذا اللقاء، فيقول من بحر الرمل[1]:

فاوضت فى الوصل عينى عينها ∴ فازدهت عجبا وقالت:ما لديك؟!
أعليل أنت ! ماذا تشتهى؟ ∴ قلت: قطفى بيدى ... [2]
فانثنت كبرا وقالت : ويلتا ∴ أو هذا كله تطلب ويك !
أنا شمس وبعيد فلكى ∴ وضيانى نافر من راحتيك
لو بدا أمرك من قبل ذا ∴ ما رأت ناظرتى ناظرتيك

هكذا كانت ألفاظ الشاعر، وتلك كانت أساليبه، رقة وعذوبة وسلاسة، لدرجة تكاد تصل إلى النثرية، مع البعد عن الغريب والمعجم من الألفاظ، اللهم إلا لإثبات البراعة لدى النظراء، ومحاكاة الفحول من القدماء، إذا كان الأمر كذلك، فماذا عن التصوير الشعرى؟ ذلك ما تفصح عنه الفكرة التالية.

(١) ديوان ابن حمديس: ٣٤٣ .
(٢) تعمدت الحذف لهذه الكلمة ، احتراما للمشاعر .

ثالثا ـ التصوير الشعرى

تميز ابن حمديس (رحمه الله) "بسعة فائقة فى الخيال، وخصوبة ممتعة فى الوصف، فكان رساما دقيقا فى تعابيره، ومصورا ينفخ فى الأشياء من شاعريته حين يجسمها ويلونها، فلا تكون رسوما جامدة، ولا أصباغا باهتة"(١)، والسبب فى تلك المخيلة اللاقطة يرجع إلى نشأته فى (سرقوسة وصقلية) ، أما (سرقوسة) فحسبها أنها "مترعة بآيات الجمال: جمال الطبيعة، وجمال الحسان من بنات الروم، وجمال العربيات، وأما (صقلية) فهى الميناء الذى يتميز بالخير والجمال، وأهل الموانئ يمتازون بنفاذ الفكر، وحدة الخيال. أضف إلى ذلك مشاهداته العديد من المعارك البرية والبحرية التى أمدته بلهب من الحماسة، وزودته بذخيرة من الوصف، وكذلك تنقلاته بين الأندلس وربوعها، وبين تونس الخضراء وبساتينها، حيث مساقط الأنهار ومساربها، وعظمة القصور وفخامتها، وجمال الزهور ونضارتها، والنخيل الباسقة والحدائق الفيحاء، والمرح الدائم والموسيقى والغناء"(٢) .

كل هذا أكسبه طرافة فى التخيل، وابتكارا فى التصوير .

أما الطرافة فى التخيل فقد جادت عبقريته بالعديد من الصور الطريفة، سواء أكان ذلك فى مجال الطبيعة أم الغزل أم الزهد، ها هو ذا ينتقى بعينه اللاقطة من الطبيعة ما يروقه من محاسنها، فيمهد قبل وصفه للصباح وأشعة الشمس، بالحديث عن وقت الغداة، حين تتساقط لآلئ الندى على الأغصان، فتتمايل سكرى كأنها نشوان، وسط شدو الطيور بأعذب الألحان، وبينما يتخيل الصباح كف إنسان،

(١) بتصرف ــ قضايا أندلسية: ٢٢٤ ، ابن حمديس الصقلى: ٣٠ .
(٢) بتصرف ــ ابن حمديس الصقلى: ٥، ٦، ٤٣، ٤٤، ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ١٠٩، ١٢٩ .

تزيح ما تراكم من الظلام، ليعم الضياء ويسود الأمان، إذا بأشعة الشمس تنتشر فى كل واد ، وكأنها طيور تعز على الصياد ، هكذا يحدثنا قائلا من بحر الرمل[1]:

فتثنى الغصن سكرا بالندى ∴ وتغنى ساجع الطير غرد
وكأن الصبح كف حللت ∴ من ظلام الليل بالنور عقد
وكأن الشمس تجرى ذهبا ∴ طائرا فى صيده من كل يد

وكان من بين ما يعجبه فى الطبيعة ألوان الخيل وإحكام خلقها. أما عن ألوانها فقد كان يؤثر اللون الأحمر الوردى المائل إلى البياض، ثم يأتى بعلة طريفة حين يشبهه بالوردة الحمراء التى بمجرد أن قبلها النهار، صار موضع القبلة أبيض أمام كل الأبصار. فيقول من بحر الكامل[2]:

ورد تميع فيه عندم حمرة ∴ كالورد أهدى فى الربيع لنا شقق
وكأن صبحا خص فاه بقبلة ∴ فابيض موضعها لعين الرامق

كما يؤثر الكميت[3]، فينظر إليه نظرة المحب العاشق، أو الشارب الوامق، وذلك حين يشبهه بلون الشفة اللمياء، أو بالخمر المعتقة فى الوعاء ، حيث يقول من بحر الكامل[4]:

كاد الكميت ينوب عن لعس اللمى ∴ ويسوغ كالخمر الكميت لذانق

---

(١) ديوان ابن حمديس : ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه: ٣٣٠ بتصرف ، العندم : صبغ أحمر اللون . مزيج من دم الغزال ولحاء الأرطى يطبخان جميعا حتى ينعقدا فتختضب به الجوارى، والرامق: الناظر إلى الشىء فى ترقب المعجم الوجيز : ٢٧٨ ، لسان العرب : ٣١٢٧/٤ .
(٣) الكميت : اللون بين الأسود والأحمر، واللعس : سواد مستحسن فى باطن الشفة، واللمى جمع لمياء : وهى الشفة اللطيفة القليلة اللحم ــ المعجم الوجيز : ٥٤١ ، ٥٥٩ ، ٥٦٥ .
(٤) ديوان ابن حمديس: ٣٣١ .

هذا عن ألوانها، وأما عن إحكام خلقها، فإنه بعد أن يجمع كل عوالم الطبيعة البرية والبحرية والجوية، يتخيل آذانها المنصوبة اللامعة تخيلا طريفا، فيشبهها بالأقلام الممشوقة السامقة ، فيقول من بحر الكامل[1]:

نينان أمواه وفتخ سباسب ∴ وظباء آجام وعصم شواهق
بمؤللات تستدير كأنها ∴ أقلام مبتدع الكتابة ماشق

وفى مقام الغزل نلحظه يتخيل فى طرافة بالغة، تؤكد سعة أفقه، ورحابة خياله، مائية ورواء خد من يهوى، فبينما يعانى الجنان، من نار الشوق والهيام، إذا بشرارة تطير من قلبه فى الهواء، فيكون مستقرها خد الحسناء، بيد أنه لم يصب بإيذاء؛ لانطفائها بما فيه من ماء، كيف لا! وهى التى سلبت الجمال من بدر السماء، هكذا يتحفنا بهذا المعنى الذى يتقاطر رقة وطرافة فيقول من بحر الكامل[2]:

ياسالبا قمر السماء جماله ∴ ألبستنى للحزن ثوب سعانه
أضرمت قلبى فارتمى بشرارة ∴ وقعت بخدك فانطفأت من مانه

حتى فى مقام الزهد لا يتخلى عن تلك الطرافة حين نجده يشفق على الملك الذى يتولى كتابة السيئات، ويتخيله مرهقا قد ألم به النصب والإعنات، ومن ثم كانت الدعوة إلى اغتنام الحسنات. والإقلاع عن الذنوب والهفوات ، فيقول من بحر المتقارب[3]:

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٣٣٠ ، والمراد بالنينان: الشعر الضعيف والفتخ : طول العظم مع قلة اللحم فى الرجلين ،والسباسب : الصحارى ، والآجام: الأشجار الكثيرة المتلفة ،والتألل : تحديد الشىء ، يقال: ألل الحربة إذا حدد طرفها ــ المعجم الوجيز : ٧ ، ٢٣، ٣٠١ ، لسان العرب : ٥/٣٣٤٠ ، ٦ / ٤٥٥٣ .

(٢) ديوان ابن حمديس: ٥٣٧ ، يقال أضرم النار : إذا أوقدها وأشعلها ــ المعجم الوجيز : ٣٨٠ .

(٣) ديوان ابن حمديس : ٤١ ، والعبرة بفتح العين : الدمعة ــ المعجم الوجيز : ٤٠٤ .

أذب منك قلبا تجرى به ∴ سوابق عبرتك الساكبه
على كل ذنب مضى فى الصبا ∴ وأتعب إثباته كاتبه
عسى الله يدرأ عنك العقاب ∴ وإلا فقد ذمت العاقبة

وأما الابتكار فى التصوير، فقد كانت الطبيعة هى المجال الفسيح لاستعراض عبقريته فى غير القليل من الصور التى تحمل كل معانى الجدة والابتكار، ها هو ذا يبدى مدى إعجابه بالزهور الوردية من شقائق النعمان، وما يتدلى حولها من شرائح حمراء، فيشبهها حال الاتساق والاستواء ، بشعور القيان الممشطة فى رواء، وقد قمن يرقصن فى الغلائل الحمراء ، حيث يقول من بحر الطويل[1]:

نظرت إلى حسن الرياض وغيمها ∴ جرى دمعه منهن فى أعين الزهر
فلم ترعينى بينها كشقائق ∴ تبلبلها الأرواح فى القضب الخضر
كما مشطت غيد القيان شعورها ∴ وقامت لرقص فى غلائلها الحمر

ويجذب انتباهه منظر بركة رخامية أنشئت فى قصر (المنصور ابن علناس)، فبينما ازدانت بتماثيل الأسود على حافتها، والعياد تتقاذف من أفواهها، محدثة صوتا بخريرها، إذا بالذاكرة تسعفه بالابتكار، فيشبه صوت الخرير بالزئير الذى ينذر بالأخطار، فيقول من بحر البسيط[2]:

وضراغم سكنت عرين رئاسة ∴ تركت خرير الماء فيهن زئيرا

كل هذه المشاهد تؤكد مدى غرام شاعرنا بالطبيعة ومفاتنها فى جميع أحواله بعامة، وفى حال الضيق النفسى بخاصة ؛ هروبا من الآلام التى جرعتها له الأيام، ففى الطبيعة سلواد، وفى رحابها يبث

(١) ديوان ابن حمديس: ١٩٢، والمراد ببلبلة الأرواح: هياج الريح وتحركها، والغيد جمع غادة: وهى الفتاة الناعمة اللينة، والغلائل جمع غلالة بكسر الغين: وهى الثوب الرقيق يلبس تحت الدثار ــ المعجم الوجيز: ٤٥٤، ٤٥٨، لسان العرب: ٣٥١/١ .

(٢) ديوان ابن حمديس: ٥٤٧، والعرين: مأوى الأسد والضبع والذئب والحية العظيمة، والخرير: الصوت الناشىء من شدة جريان الماء ــ المعجم الوجيز: ١٩٠ ، ٤١٦ .

حنينه وشكواه، لقد قاسى من الأهوال، وعانى مما تزول منه الجبال، ومن ثم كان كثيرا ما يخلو بين نفسه، ويمعن التأمل فيها وفى جمالها، وانسياب جداولها وأنهارها، ثم يتحفنا بالصورة الجمالية التى تعكس مدى معاناته النفسية، ها هو ذا يشاهد نهرا ينبعث من عين ماء، فيشبهه بدموع عين شاخصة طوال دهرها، وهى لا تكف عن كثرة بكائها، حيث يقول من بحر الطويل[1]:

ومرو صدى الروضات يسحب دانيا ∴ على الأرض منه جملة تتبعض
وما هو إلا دمع عين كأنها ∴ لطول بكاء دهرها لا تغمض

وفى مقام آخر يتحفنا بهذه الصورة الصوتية حين يتخيل النهر حال السير على الحصى وسط البقاع، وصوت خريره يطرق الأسماع، وكأنه جريح يجأر بالشكوى من الأوجاع ، فيقول من بحر الطويل[2]:

جريح بأطراف الحصى كلما جرى ∴ عليها شكا أوجاعه بخريره

كل هذا يؤكد مدى المشاكلة بين نفسية الشاعر وبين الطبيعة التى أمدته بتلك الصور الآسية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شاركته مظاهر الحداد عند موت جاريته (جوهرة) غرقا، فالبحر قد تكدر ماؤه لونا، وتحول من العذب إلى الأجاج طعما، أما القمر فقد جلله السواد حزنا ، حيث يقول من بحر البسيط[3]:

أقول للبحر إذ أغشيته نظرى ∴ ما كدر العيش إلا شربها كدرك
هلا كففت أجاجا منك عن أشر ∴ من ثغر لمياء لولا ضعفها أسرك
ياوجه جوهرة المحجوب عن بصرى ∴ من ذا يقيك كسوفا قد علا قمرك

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٩١، ٢٩٢ ، بتصرف ، والمراد بالصدى : شدة العدلش ــ المعجم الوجيز: ٣٦٢ .

(٢) ديوان ابن حمديس: ١٨٦ .

(٣) المصدر نفسه: ٢١٣ بتصرف، والأشر : البطر والكبر ــ المعجم الوجيز: ١٨ .

هكذا كانت عبقرية شاعرنا وما جادت به من الطرافة فى التخيل والابتكار فى التصوير، ليس هذا فحسب ، بل تطورت تلك العبقرية الخلاقة فى الجمع بين الاثنين فى آن واحد، ها هو ذا يستيقظ مبكرا، ويشخص ببصره نحو السماء، فإذا ببقية من القمر تبدو فى الأفق لحظة تباشير الصباح، فيشبهه ــ والحال هذه ــ بنعل حافر لجواد كان فى حالة جماح، وفى هذا ما فيه من الطرافة والابتكار، فقد تخيل الصبح جوادا شاهب البياض، والليل جوادا حالك السواد، وها هو ذا الأشهب يتبع الأسود فى دابره، فيفر مذعورا ويسقط منه نعل حافره.

لندع عبقرية الشاعر، تترجم كل تلك الخواطر، بأسلوب يذوب رقة وعذوبة، حيث يقول من بحر البسيط[1]:

ورب صبح رقبناه وقد طلعت ∴ بقية البدر فى أولى بشائره
كأنما أدهم الظلماء حين نجا ∴ من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

إثر هذا الاستعراض لتلك الموهبة النادرة، ومدى قدرتها الفائقة على التخيل والابتكار ، يجدر بنا أن نشير إلى مدى درجة تلك الموهبة، فى السيطرة على النظم الشعرى، وغاية التناسق بين البحور والقوافى، وذلك من خلال الإيقاع الموسيقى، هذا ما تفصح عنه الفكرة التالية .

(١) ديوان ابن حمديس: ١٩٢ .

رابعا ـ الإيقاع الموسيقى

بالتأمل فى شعره نلحظ مدى تمكنه من ناصيته، وغاية حرصه على التوافق الصوتى، والتناغم الموسيقى الذى يحدث وقعا طيبا على النفس والسمع فى آن واحد، سواء أكان ذلك على مستوى الموسيقى الخارجية بضرورة المواءمة بين البحور بقوافيها وحركاتها وبين الأغراض الشعرية، أم على مستوى الموسيقى الداخلية بتطعيم شعره وتوشيته بألوان البديع المختلفة: من طباق وجناس وتورية ومقابلة وتصريع وترصيع وتقفية ونحو ذلك.

حين تنعم النظر فى نتاجه من تلك الزاوية ، نلحظ "أن البديع فى شعره كان جميلا رقيقا سائغا، أشاع الطرافة فى شعره"[1] ها هو ذا يؤكد هذه الحقيقة فى نفسه، ويعترف بتميزه فيها عن سواه، فيقول من بحر الكامل[2]:

رجحت بقسطاس البديع وإنها ∴ لخفيفة الأرواح والأجساد

من هذا المنطلق نلحظ مدى حرصه على تجميل اللفظ وتنميقه، حيث يقول من بحر البسيط[3]:

حرر لمعناك لفظا كى تزان به ∴ وقل من الشعر سحرا أو فلا تقل

ومما يدعم ذلك إشارته إلى أن البديع هو الفن الذى يميز المروى من المرتجل، فيقول من بحر المتقارب[4]:

إذا شمل القول حسن البديع ∴ فأين المروى من المرتجل

---

(١) قضايا أندلسية: ٢٢٤ .
(٢) ديوان ابن حمديس : ١٤٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٠١ .
(٤) المصدر نفسه: ٣٦٢ .

لهذا كان استعماله للبديع يتم بعناية بالغة، وبدقة وحذر شديدين، شأنه فى ذلك شأن الصائغ الحاذق الذى يتعامل مع الميزان الحساس بنفس الدرجة من العناية والحذر، حيث يقول من بحر الخفيف[1]:

زن بديع الكلام وزن محرر ∴ مثل ما يوزن النضار المشجر

"وكان أحب ألوان البديع لديه ـ شأن عامة الأندلسيين ـ الجناس تاما وناقصا"[2] ، وقد بلغ من شدة الإلحاح على هذا اللون والإيثار له، أن جذب انتباه الشاعر (ابن سهل) الذى أشار إلى ذلك بقوله من بحر الكامل[3]:

شتى يحسنها التشابه مثلما ∴ تستحسن الألفاظ للتجنيس

ولن يتحقق هذا الإبداع الموسيقى، والتناغم الإيقاعى بشكل جلى تام، إلا من خلال الأمثلة والنماذج، ها هو ذا يحدثنا فى مجال الزهد والخوف من الوقوف بين يدى الله، بسبب ما اقترفت يداه، وعندئذ لا منقذ ولا ملجأ له إلا عفو الله، حيث يقول من بحر الطويل[4]:

إلىكم أرانى فى هوى النفس خائضا ∴ ولم اتق الإغراق منها على نفسى
وقد شملتنى شيبة لم أبت بها ∴ فمالى فى ليلى وقد طلعت شمسى
غرست بكفى المعاصى جاهدا ∴ ولا شك أنى أجتنى ثمر الغرس
إلى الله أشكو جملة أرتدى بها ∴ وأصبح منها فى الذنوب كما أمسى
فيا وحشتى من سوء ما قدمت يدى ∴ إذا لم تكن فى القبر من رحمة أنسى

بالتأمل نلاحظ إيثار الشاعر بحر الطويل، وهو من البحور الثقيلة ذات الجرس القوى والرنين الشديد، وهذا ـ لعمرى ـ

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٠٤ .
(٢) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر: ٥٢٦ بتصرف.
(٣) ديوان ابن سهل: ٢٦٣ .
(٤) ديوان ابن حمديس: ٢٨١ .

يتناسب مع قوة التجربة القاسية التى يمر بها الشاعر، حيث الشكوى المريرة من آلامه وأحزانه، فقد تقدمت به السنون، وشملته من المشيب الهموم، وتكاثرت عليه الذنوب، ولم يجد مخرجا من هذا كله سوى أن يشمله الله فى القبر برحمته، وأن يمن عليه بقبول توبته، كما تبدو براعته فى اختيار قافيته حرف (السين) بما فيه من همس وضعف، يتوافقان مع ضعف موقفه أمام ربه، ولاسيما أنه كرس كل جهوده فى غرس المعاصى بيديه، وها هو ذا يجنى ثمار ما غرست يداه، ومن ثم كان الندم والخوف من الله، وبما أن القلب مشحون بالهموم، فقد أتبع القافية بحرف المد والإشباع (الياء)؛ كى يعطيه الفرصة ليفرغ فيه شحنة ما يعانى من أحزان وآلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كون (الياء) ياء المتكلم، ففى ذلك معنى الخصوصية، وكأنه أراد الاحتفاظ بهمومه لنفسه، وأن تظل أحزانه وآلامه حبيسة صدره، لا يطلع عليها بشر ، ولا يعلم بحقيقتها أحد سوى ربه، ليس هذا فحسب، بل إن العبقرية الشعرية تتجلى حتى فى الإيثار لحركة القافية (الكسرة) كى يتفق ذلك مع انكساره النفسى، وقهره المعنوى، وهزيمته الوجدانية التى جلبت عليه كل تلك الهموم.

هذا عن مدى التوفيق الذى حالفه فى الموسيقى الخارجية، ولا غنىً فى الوقت نفسه عن الموسيقى الداخلية التى استعان بها؛ لإبراز معانيه وتقريرها فى ذهن المتلقى، وذلك من خلال الجناس الناقص بين (أمسى وأنسى) والتام بين (النفس والنفس) فى البيت الأول، إذ المراد بالأولى : النفس الأمارة بالسوء التى تجنى على صاحبها إن لم يحكم حوهرة العقل فى أمرها، والمراد بالثانية: الذات، وكذلك الطباق بين (ليلى وشمسى، غرست وأجتنى، وأصبح وأمسى) والمقابلة بين شطرى البيت الثالث؛ لإبراز مدى الندم على ما اقترف

فى حق الله، وكذلك بين شطرى البيت الأخير الذى يشير إلى أنه لا ملاذ ولا مفر من فزع القلوب إلا أن تدركه رحمة الله، فهو غفار الذنوب.

وإذا كان الشاعر قد أثر هنا اختيار حرف (السين) المكسور قافية له، وحرص جاهدا على الاحتفاظ بأسراره لنفسه، أسرار تراكم ذنوبه، وطلبه الرحمة من ربه، ففى موطن آخر تتجلى عبقريته حين يؤثر الحرف نفسه ليكون قافيته، بيد أنه فى هذا الموطن يجأر بأعلى صوته، ويصرخ من أعماقه، لماذا؟ لأن القضية هنا قضية وطن اغتصب عنوة، واستولى على أقطاره الذل والحرمان، بعد أن كان فى جاد وعز وسلطان، ومن ثم كان الإيثار لحرف (السين) المفتوح المتبوع بألف الإطلاق حتى يسمع العالم كله بقضية وطنه.

ها هو ذا يجسد حجم الكارثة، كارثة استيلاء الأعداء على الوطن (صقلية) ويصور مدى المعاناة النفسية، لما ألم بهذا الوطن على أيديهم فيقول من بحر الطويل[1]:

أعاذل دعنى أطلق العبرة التى ∴ عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
فإنى امرؤ آوى إلى الشجن الذى ∴ وجدت له فى حبة القلب ناخسا
لقدرت أرضى أن تعود لقومها ∴ فساءت ظنونى ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها ∴ تكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت ∴ مساجدها أيدى النصارى كنائسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب انطقت ∴ مع الصبح والإمساء فيها النواقسا
صقلية كاد الزمان بلادها ∴ وكانت على أهل الزمان مخارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهرا ∴ وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٧٤، ٢٧٥ بتصرف، والشجن: اليد والحزن، والنخس: الوخز والألم، يقال: نخس الدابة: اذا غرزجنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه ــ المعجم الوجيز: ٣٣٦. لسان العرب: ٦/ ٤٣٧٦.

بالنظر نلاحظ الإيثار لبحر الطويل أيضا باعتباره أحد الأبحر القوية الثقيلة التى تتناسب مع قوة الكارثة، وشدة المعاناة التى ألمت به من جرائها، كما آثر حرف (السين) قافية له، ومن المعروف صوتيا أن هذا الحرف وإن كان يحمل صفتى الهمس والضعف، وهما صفتان تنسجمان مع حال الشاعر المهزوم نفسيا، المقهور معنويا من جراء ما حدث ، إلا أن المقام يقتضى بالإضافة إلى ذلك ما هو أكثر أهمية وأعظم خطرا، وهو أن هذا الحرف يتميز أيضا بالجرس العالى، وحدة النبرة، وقوة الصفير، وقد عمد إليه الشاعر من تلك الزاوية؛ ليتوافق مع جلال وضخامة الكارثة، ومما يدعم ذلك أنه آثر الفتح له وكرره فى النص ــ كما نلحظ ــ ست عشرة مرة، وإيثار الفتح للقافية، بما فى الفتح من صفة القوة والاستعلاء؛ ليتواءم ذلك مع جلال الحدث ، وقوة تأثير الكارثة فى نفسه، كما نلاحظ مدى الحرص على الإتيان بألفى المد فى جميع تفعيلات القافية: الأولى ألف التأسيس التى تسبق الدخيل، والثانية ألف الإطلاق التى تلى القافية، وكلتا الألفين تتناغمان مع حجم الكارثة، ذلك أن الشاعر لما كان الحزن والأسى يمور بين جوانحه، ويغلى كالبركان فورانا، أتى بألف التأسيس؛ كى تمنحه فسحة من الوقت تمكنه من تفريغ شحنة الألم النفسى العميق الذى تمكن من سويداء لبه، أما ألف الإطلاق فقد أتى بها عقب القافية، ليترجم بها عن مدى صرخة احتجاجه عما ألم ببلاده، وكأنه أحس أن القافية بحركتها، بما فيها من قوة واستعلاء، لا تكفى فى الترجمة عن الأسى الذى يعتصر نفسه، حزنا على وطنه، فأتى بالألف بعدها، بما لها من رنين إيقاعى يؤثر ويساعد على امتداد صدى صوته إلى أبعد مدى، وكأنه يعنى بذلك، التنديد بهذا العدو الغادر، والافتضاح لأمره، حتى تعلم الدنيا بأسرها جرمه، ويطرق النبأ سمع الأجيال فى كل زمان ومكان.

هذا عن إبداعه فى الموسيقى الخارجية فى النص، وهذا لا يغنى عن إبداعه فى الموسيقى الداخلية التى استعان بها على إبراز ما يعانى وتوضيحه وتقريره فى ذهن المتلقى، ويتمثل ذلك فى الجناس الناقص بين (ناخس وناحس، ونواقس ونواعس) والطباق بين (مساجد وكنائس، والصبح والإمساء، والخوف والأمن، وسواهر ونواعس) كما نلحظ فى المقابلة بين شطرى البيت الثالث إيحاء بمدى خيبة الأمل التى ألمت بالشاعر فى استرداد الوطن السليب، بيد أنه وإ أسفاه تبخرت كل الآمال، وتبددت كل الأحلام، بعد أن ثبت الغادر فيها الأقدام، وأذاق الوطن أقسى ألوان الذل والهوان، برفعه أصوات الأجراس، وخمده أصوات الأذان، كما أن فى المقابلة بين شطرى كل من البيتين الأخيرين إيحاء بأن الغدر والكيد للوطن السليب، لم يكن من قبل الأعداء فحسب، وإنما كان من الزمن أيضا الذى أذله، ووقف منه موقف المعاند الكائد الماكر، فبعد أن كان مصدر الأمان لجميع أهل الزمان، إذا به يسام أقسى وأمر ألوان الخسف والهوان، ومن ثم جفا النوم العيون بعد أن كانت تقر بالأمان.

وإذا كان الشاعر قد آثر البحور الثقيلة الجرس والرنين؛ لتناسب قوة التجربة، وجلال الفكرة، ففى المقابل نلحظه يؤثر البحور الخفيفة؛ ليتواءم ذلك مع الرقة والطرافة، ولاسيما إذا كان المقام مقام اللهو والشراب، عندئذ يلجأ إلى توشية شعره بالبديع والطرائف، وينتقى من البحور وقوافيها وحركاتها ما يناسب ذلك.

ها هو ذا يصف يوم لهو وشراب ، وبرفقته غادة حسناء، فيقول من مجزوء الكامل[1]:

يوم كأن نسيمه ∴ نفحات كافور ومسك
وكأن قطر سمائه ∴ درهوى من نظم سلك

(١) ديوان ابن حمديس: ٥٥٥، ٥٥٦ .

متغير فينا وصحـ ∴ وا مثل ما حدثت عنك
كالطفل يمنح ثم يمـ ∴ نع ثم يضحك ثم يبكى

بالتأمل نلحظ أن الشاعر لم يختر بحر الكامل فحسب، وإنما آثر المجزوء منه لخفته، حتى يتناسب ذلك مع رقة الألفاظ، وعذوبة المعانى، وطرافة العرض، فالنسيم يداعب الوجود، ويصافح الأنوف بعبيرد الفواح، وحبات المطر تنساب على هيئة خيوط متناسقة، وكأنها فى الإشراق درا هوى من سلك منظوم.

ثم يمعن فى الرقة والطرافة حين يقول: (مثل ما حدثت عنك) ليشبه من يهوى بالاثنين معا: باليوم فى سرعة تقلب أحواله، وبالطفل فى سرعة تغير مزاجه، ثم نلحظه يعمد إلى الطباق بين الكلمات (غين، صحو، يمنح، يمنع، يضحك. يبكى) لإبراز كل تلك المعانى وتوكيدها فى ذهن المتلقى، ولا يخفى علينا إيثارد حرف (الكاف) ليكون قافية له، باعتباره أحد الأصوات الضعيفة المهموسة، حتى حركة القافية آثر كسرها؛ ليتواءم كل ذلك مع ضعفه وانكساره ومدى تذلله لهذا المحبوب الذى لم يجد له شبيها سوى حال هذا اليوم والطفل؛ كى يؤكد مدى سرعة تغير حاله، وتقلب مزاجه، ولا لوم عليه فى كل ذلك، إذ إنه من المعهود عرفا فى قاموس أهل الهوى والهيام. أن للصدود من طبع الحسان.

وأخيرا بالتأمل فى مطلع قصائده، لوحظ مدى حرصه على تلك الموسيقى الداخلية؛ لإبراز ما يريد من معان، وذلك من خلال استهلال الكثير من تلك القصائد بالتصريع تارة، وبالتقفية تارة أخرى . وهذا ـ لعمرى ـ منهج القدماء؛ كى يؤكد لنا مدى عبقريته، وبالغ شاعريته.

فمن أمثلة التصريع، قوله من بحر الكامل[1]:

هل أنت فادية فؤاد عميد .·. من لوعة فى الصدر ذات وقود

ومن أمثلة التقفية، قوله من بحر الطويل[2]:

أمسك الصبا أهدت إليّ صبا نجد .·. وقد ملئت أنفاسه لى بالوجد

تلك كانت عبقرية الشاعر، وهذه كانت موهبته الفذة فى الإبداع الفنى، والقدرة البارعة على تحقيق الإيقاع الموسيقى، بما يتفق والغرض الذى يرمى إليه، بالإضافة إلى إبداعاته السابقة فى المعانى والأفكار، والألفاظ والأساليب، والتصوير الشعرى، وليس معنى ذلك أنه بلغ الغاية، أو حاز قصب السبق فى النهاية، كلا ! فالكمال المطلق ليس إلا لله وحده، ومن ثم لوحظ عليه بعض المآخذ التى زلت فيها قدمه، وذلك ما يتكفل به المبحث الثالث والأخير من تلك الدراسة.

(١) ديوان ابن حمديس: ١٢٩، ونماذج أخرى: ١٣٤، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه: ١٤٩، ونماذج أخرى: ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٤، ٢٠٩ .

المبحث الثالث

الشاعر فى ميزان النقد

كل ما سبق من مباحث وبخاصة الثانى منها، تحدثنا عن ميزات الشاعر ومدى إبداعه الفنى ونبوغه الشعرى، وبما أنه فى البداية وفى النهاية بشر، فالكمال المطلق لله وحده، من هذا المنطلق كان ذلك المبحث؛ للوقوف على بعض هناته وأخطائه التى هى من طبع البشر، ويؤيد هذا قول ابن خلكان بأن "له ديوان شعر أكثره جيد"(١) فالتعبير بالأكثرية فيه إيماء إلى وجود العديد من الأخطاء ولاسيما العروضية "وما لحقها من تصحيف وتحريف"(٢)، وباستعراض ديوانه تزاحمت الأخطاء أمام المتأمل، سواء أكانت عقدية، أم نقدية، أم لغوية، أم عروضية. وها نحن أولاء نعرضها بشئ من التفصيل كما يلى :

أما عن الأخطاء العقدية فقد زلت قدمه فى غير القليل منها. وقد بلغ فيها حد التطرف العقدى، كوصفه لمدى درجة تأثره بالخمر بقوله من بحر المتقارب(٣):

ركضت بها الليل فى نشوة ∴ أصلى لها بسجود الجبين

ففى الصلاة للخمر والتعظيم لها بسجود الجبين لون من التطرف الحاد، حيث إن الصلاة المقرونة بالسجود، لم تشرع إلا للواحد المعبود. وكان بالإمكان أن يستبدل بالشطر الثانى قوله: (كأنى بروض وماء معين).

(١) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٨٣ .
(٢) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره: ٨٢ بتصرف.
(٣) ديوان ابن حمديس: ٤٨٨ .

ومن أمثلة هذا اللون أيضا وصفه سرعة مرور الوقت مع من يهوى بأنها أقصر من جلسة الخطيب، حيث يقول من بحر السريع[1]:

كان زمان اللقاء منها ∴ أقصر من جلسة الخطيب

ويلاحظ أن فى هذا الوصف لونا من التطرف الذى لا يناسب ، المقام ومن الممكن استبدال (الغريب) بالخطيب ؛ لأن الغريب على سفر ، ومن شأنه التعجل فى كل شئونه ،شوقا للعودة إلى موطنه .

كما يشبه الصوت الموسيقى الصادر من الآلة بصرير أبواب الجنة ، فيقول من بحر المنسرح[2] .

كأن ألحانه الفصيحة من ∴ صرير باب الجنان مكتسبه

وفى ذلك أيضا لون من التطرف ، وفى مكنته أن يستبدل بالشطر الثانى قوله: (خريرجرى المياه مكتسبه) ومن ذلك قوله من بحر الرجز[3] :

كأنما الكافور نثر ثلجنا ∴ أو ندف البرس لنا قوس قزح

ففى إسناده القوس إلى (قزح) لون من التطرف العقدى، لما ورد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما "لا تقولوا قوس قزح، فإن قزح اسم شيطان، ولكن قولوا قوس الله عزوجل فإنه أمان لأهل الأرض من الغرق بعد قوم نوح عليه السلام"[4] وكان باستطاعته أن يستبدل بكلمة (قزح) كلمة (فرح)، إشارة إلى جمال شكله، وألوان طيفه، ويدعم ذلك أن " سبب نسبته إلى الشيطان يتمثل فى تزيينه المعاصى للبشر ، فهو من التقزيح بمعنى التحسين"[5] .

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٦ .
(٢) المصدر نفسه : ٢١ .
(٣) المصدر نفسه: ٨٧،والندف: النفش ، يقال ندف القطن إذا بالغ فى ندفه ، والبرس : قطع السحاب الرقيقة المتفرقة ــ المعجم الوجيز :٦٠٨، لسان العرب : ٥/٣٦٢٠ .
(٤) لسان العرب :٥/ ٣٦١٩ ، والأدب المفرد : ٢٦٠
(٥) المصدر نفسه :٥/ ٣٦١٩ ، ٣٦٢٠ .

كما يصف مدى إخلاص أهل (سفاقس) لها ، فيقول من بحر البسيط[١]:

وأهلها أهل طوع لا ذنوب لهم ∴ إنى لأقسم ما خانوا وما غدروا

يلاحظ مدى تناقض الشطر الأول مع الحديث النبوى الشريف "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائيين التوابون" [٢] إذ إنه لا عصمة بعد الأنبياء، وبإمكانه أن يستبدل بقوله (لا ذنوب لهم) عبارة (مخلصين لها) ويقول من بحر الطويل [٣] :

فبات يشب النار فى القلب حبها ∴ على أنها كالماء فى فم صائم

يلاحظ تشبيهه متعة الإحساس بنار الجوى فى قلبه، بمتعة الماء فى فم الصائم لحظة فطره، وكان الأولى أن يستبدل بصائم كلمة (هائم)، حيث إن من معانى الهيام "الظمأ الشديد"[٤] ويمدح الأمير يحيى بن تميم ، فيقول من بحر الطويل[٥]:

وتمشى بذى الإكبار جبهة ساجد ∴ إليه وفوق الترب أو فم لاثم

ففى وصفه الممدوح بمشى جباه الساجدين إليه مغالاة فى التطرف نشم منها رائحة التجرؤ على الحق سبحانه وفى الإمكان أن يستبدل بقوله (جبهة ساجد) عبارة (أرجل طالب) .

ويقول من بحر السريع[٦] :

ذا كعبة الجود الذى كفه ∴ ركن لنا لثم به واستلام

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٢٥٠ .
(٢) الترغيب والترهيب : ٤/٩١ كتاب التوبة والزهد ـ حديث رقم:١١ .
(٣) ديوان ابن حمديس : ٤٤٥ .
(٤) لسان العرب : ٦ / ٤٧٤٠ .
(٥) ديوان ابن حمديس : ٤٤٦ .
(٦) المصدر نفسه : ٤٦١ .

ففى تشبيهه الممدوح بالكعبة ، وكفه بالركن اليمانى لون من التطرف، وبالإمكان أن يأتى البيت على هذا النحو:

ذا منبع الجود الذى كفه ∴ رمز لنا لثم به واستلام

كما يقول من بحر السريع [1] :

فقارن السعد على أفقه ∴ وأنت فى العمر قرين الدوام

فالوصف للممدوح بطول العمر لدرجة أنه والدوام قرينان ، لون من التطرف يتعارض مع الأبدية المطلقة للخالق سبحانه ومن الممكن أن يستبدل بالعمر كلمة (السعد) .

(١) ديوان ابن حمديس : ٤٦٢ .

تعقيب

بما أن الشاعر من المشهود لهم بالصلاح والتقى كما علمنا من سيرته، فالباعث على هذا التطرف يرجع ـ فى أغلب الظن ـ إلى فقد السلام النفسى، نتيجة للحيرة والقلق الذين ألما به، من جراء النوائب التى أحدقت به : كالضياع للوطن، والفقد للأحباب، والتغرب والفراق الذى لازمه حتى آخر لحظة من حياته، ومن ثم فنحن أمام شاعر متوتر الأعصاب، فكل الحقائق أمامه صارت إلى سراب، وقد انعكس أثرها على فكره، وجلب له الهم والعذاب، فكان ما كان من القلق والاضطراب.

وأما عن الأخطاء النقدية فقد تعددت مجالاتها: ففى مجال الزهد نلحظ عليه الهتاف بالآخرة وحدها، وذلك بدوران أفكاره حول المشيب والنهاية والذنوب والرحمة والقبر والحساب والجزاء، وهذا لا يتفق مع منهج الإسلام الذى يأمرنا بضرورة السعى إلى الدارين معا فمن ذلك قوله من بحر الخفيف [1] :

يـاذنوبى ثقلت والله ظهـرى ∴ بان عـذرى فكيـف يقبـل عـذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى ∴ لضروب من سوء فعلى وهجرى

وقوله من بحر الرمل : [2]

ما الذى أعددت للموت فقد ∴ قدر الموت بلاشك عليك
أى خطب فادح فى رقدة ∴ يوقظ الحشر إليها مقلتيك
فلك الويل من النار إذا ∴ مقلة الرحمن لم تنظر إليك

وقوله يخاطب نفسه عند بلوغه السبعين،من بحر المتقارب[3] :

---

(١) ديوان ابن حمديس :٢٦٥ ،والهجر بضم الهاء : الهذيان والقبيح من القول ـ المعجم الوجيز: ٦٤٥ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ٣٤٦ بتصرف .
(٣) المصدر نفسه : ٤٠ .

وعظمت بلمتك الشائبة ∴ وقد شيبتك الذاهبه
وسبعين عاما ترى شمسها ∴ بعينك طالعة غاربه
فويحك هل عبرت ساعة ∴ ونفسك عن زله راغبة

وفى مجال الوصف نلحظه يجنح إلى الإغراق فى المبالغات لدرجة البعد عن الخيال، كوصفه عدو الجواد حال شعوره بمنافس له بأنه أسرع من البرق لدرجة أن يترك البرق خلفه وقد أغمى عليه، وأنه يكاد من بالغ سرعته أن يسبق ظله، كيف لا! والوثبة الواحدة منه تنقله من الشرق إلى الغرب والعكس، فيقول من بحر الكامل[1]

ومجرر فى الأرض ذيل عسيبه ∴ حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجرى ولمع البرق فى آثاره ∴ من كثرة الكبوات غير مفيق
ويكاد يخرج سرعة من ظله ∴ لو كان يرغب فى فراق رفيق

كما يقول أيضا من بحر الطويل [2] :

وطائرة بذ الخيول بسبقها ∴ وقد لبست للعين من فرس خلقا
إذا شئت ألقت بى على الغرب رجلها ∴ ونالت يد منها بوثبتها الشرقا

كما يبالغ أيضا فى وصف أضواء أحد القصور لدرجة أنها من كثافتها تجعل الأعمى بصيرا ، حيث يقول من بحر البسيط [3]:

قصر لو انك قد كحلت بنوره ∴ أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

وفى مجال الهجاء رغم تورعه عنه، نجده يحقر من دونه فيقول من بحر الطويل[4] :

أسالم من ألفيت قدرى كقدره ∴ وأعظم من فوقى وأحقر من دونى

(١) ديوان ابن حمديس : ٣٢٩ ،والعسيب : عظم الذنب أو منبت الشعر منه ــ لسان العرب : ٤/٢٩٣٦ .
(٢) ديوان ابن حمديس: ٣٢٩ .
(٣) المصدر نفسه: ٥٤٥ .
(٤) المصدر نفسه : ٥١٥ .

ولا حجة لمن يبرر ذلك "بأن التحقير فى الخلق والنفس لا فى المرتبة والمال"[1]، إذ كان الواجب ــ وهو التقى الصالح ــ "أن يزداد سموا ويوقر من دونه ولا يحقره"[2] أيا كان لون هذا التحقير كأن يقول:

أسالم من ألفيت قدرى كقدره ∴ وأعظم من فوقى وأوقر من دونى

كما لحظناه يهجو الزهور الصناعية لا لسبب سوى تجردها من العبير، فيقول من بحر السريع [3] :

وباقة مستحسن نورها ∴ وقد خلت فى الشم من كل طيب
كمعشر راقتك أثوابهم ∴ وليس فى جملتهم من أديب

وهذا ليس بشئ، فالزهرة لها فتنتها وجمالها النسبى سواء أكانت صناعية أم طبيعية، ويبدو أنه فعل ذلك محاكاة للقدماء أمثال ابن الرومى الذى هجا الورود والأزهار، وفى مجال الرثاء لجاريته (جوهرة) التى ماتت غرقا، نجده يمزج بين الرثاء والغزل من خلال قصيدتين، وبالنظر فيهما نلمح غصن البان، وجناح القطاة، وروضة الحسن والجمال، والزهر الذابل، ولجج البحر، والذوائب المعطرة، والعيون المكحلة، فضلا عن التلاعب اللفظى باسمها حين يشبه خاطرد بالصدف الذى كان يحميها، وما كان أغناه عن هذا كله، وكان الأولى أن يذكرنا بجلال الموت والعظة به والرضا بالقضاء والقدر .

أما عن القصيدة الأولى، فقد استهلها قائلا من بحر البسيط[4].

أيارشاقة غصن البان ما هصرك ∴ وياتألف نظم الشمل من تثرك؟

---

(١) ابن حمديس الصقلى : ٢٢ .
(٢) ابن حمديس الصقلى حياته من شعره : ١٦٧ بتصرف .
(٣) ديوان ابن حمديس : ٢٤ .
(٤) ديوان ابن حمديس: ٢١٢ .

وأما عن القصيدة الثانية، فقد استهلها بقوله من بحر المنسرح[1] :

يهدم دار الحياة بانيها ∴ فأي حي مخلد فيها

وأما عن الأخطاء اللغوية فمنها: تعبيره بقوله (ها أنا اليوم) وذلك من بحر البسيط [2] :

وها أنا اليوم أرثيه وكنت له ∴ أنقح المدح والدنيا لها غير

والصواب (هأنذا اليوم)؛ "لأن هاء التنبيه إذا دخلت على ضمير رفع، وجب الإخبار عنه باسم إشارة مناسب"[3]، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [4].

ومنها : إتيانه بجواب (لو، لولا) مجردا من اللام، كقوله من بحر البسيط [5] :

ولو خلا الدهر ذو الأبناء من عجب ∴ أكثرت منه ومن أبنائه عجبي

وكقوله من بحر البسيط أيضا [6] :

لولا حديث على قلت من أسف ∴ بفيك - يامن نعى يحيى لنا - العفر

و"الواجب اقترانه بها[7]"، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾،[8] وقال أيضا: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [9] ، وكذلك

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٥١٧

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٢ وينظر نموذج آخر ص : ٥١٥ .

(٣) مغنى اللبيب : ٢٧/٢ .

(٤) سورة النساء ــ من الآية : ٢٩ .

(٥) ديوان ابن حمديس: ١٧وينظر نماذج أخرى: ٣٧، ٥٧، ٧٩، ١٥٣، ٢٦٢، ٣٠٠، ٣٣٥، ٥٢٥ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٢٢ ،والعفر يفتح العين والفاء : التراب ــ المعجم الوجيز : ٤٢٥ .

(٧) مغنى اللبيب : ٢٠٥/١ ، ٢١٥ .

(٨) سورة هود ــ من الآية : ١١٨ .

(٩) سورة سبأ ــ من الآية : ٣١ .

[اقتران جملة جواب القسم بالفاء فى حالة اجتماع القسم مع الشرط وتقدم القسم عليه، كقوله من بحر الطويل[1] :

لئن كان أمياكل طب علاجها ∴ فكم جرب فى السيف أعيا المداوسا

و"الواجب اقترانها باللام[2]"، "قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[3]، وكذلك إتيانه بخبر (كاد) مقترنا بأن نحو قوله من بحر الرمل[4]:

وكأن الأثر فيها نمش ∴ كاد أن يخفى بتوريد الخدود

و"هذا قليل عند العرب، والكثير تجرده منها"[5]، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[6].

وأما عن الأخطاء العروضية، فقد لجأ إلى الضرورات غير المقبولة التى يعدها بعض النقاد" قبحا يمجه الذوق العربى"[7]، ومن ذلك: قطع الموصول، كالقطع للمصدر الخماسى، والأمر من الثلاثى غير المهموز ، فمثال الأول قوله من بحر الوافر [8]:

وان وهب الألوف وهن كثر ∴ تقدم قبلهن الإعتذار

وكان الأولى أن يستبدل بالشطر الثانى قوله : (تقدمهن فى الجود اعتذار) .

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٢٧٥ ،والمداوس جمع مدوس وهى خشبة يشد عليها مسن يدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه ــ المعجم الوجيز: ٣٩ .

(٢) شرح ابن عقيل : ٤/٤٤ .

(٣) سورة العلق ــ الآية: ١٥ .

(٤) ديوان ابن حمديس: ١٥٧، والنمش : بقع على بشرة الوجه تخالف لونها ــ المعجم الوجيز : ٦٣٥ .

(٥) شرح ابن عقيل: ١/ ٣٢٩، ٣٣٠ .

(٦) سورة البقرة ــ من الآية : ٧١ .

(٧) أوزان الشعر العمودى وموسيقاه : ١٧٤ .

(٨) ديوان ابن حمديس : ٢٣٨ ،وينظر أيضا ص ٤٥٣ .

ومثال الثانى قوله من بحر الكامل[1] :

أنظر إلى القمر الذى فى دسته ∴ فيمينه تندى بصوب غمام

والصواب الوصل بإسقاط الهمزة من كلمتى (إعتذار ، أنظر) .

هذا بالإضافة إلى وجود بعض الأخطاء المتعلقة بعيوب القافية، ومن ذلك: سناد الحذو فى قوله من بحر الكامل[2]:

كم لائم والسمع يدفع لومه ∴ والقلب يدفع قلبه بوجيبه
ملك الملوك هوى الحسان فقل لنا ∴ كيف انتفاع جسومنا بقلوبه

وكذلك سناد التوجيه حيث القافية المقيدة فى قوله من بحر الرمل[3]:

كلما موجها المزن أرت ∴ حبب الفضة فى ماء الذهب
ما درى خمارها عاصرها ∴ فحديث الصدق فيها كالكذب

ومن ذلك أيضا: الإيطاء، حيث يقول من بحر السريع[4]:

قم هاتها من كف ذات الوشاح ∴ فقد نعى الليل بشير الصباح

ثم قال بعد بيتين فقط:

هذا صبوح وصباح فما ∴ عذرك فى ترك صبوح الصباح

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٤٧٦ ونموذج آخر ص : ٥٥٣ .

(٢) المصدر نفسه: ١٠، ونماذج أخرى: ٦، ١١ ــ ١٣، ٢٥، ٣٨، ٣٩، ٤٢ ــ ٤٤، ٥٨ ــ ٦٢، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٧، ١١٣، ١١٦، ١٢٩ ــ ١٣١، ١٧٩ ، ١٨٦، ١٨٧، ٢٤٤ ــ ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٦٧ ــ ٢٦٩، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢ ــ ٣٣٤، ٣٤٩، ٣٩٨، ٤٠٣،٤٠٤، ٤٠٠، ٤٣٥ ــ ٤٣٨، ٥١٥، ٥١٦، ٥٤٥ ــ ٥٤٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٤٦، ونماذج أخرى: ٤٧ ــ ٤٩، ٨٦، ١١٧ ــ ١١٩، ١٢٥، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٢٣، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٩ ــ ٤٤٢ ، ٤٧٣، ٤٧٤ .

(٤) المصدر نفسه: ٨٩ ونماذج أخرى: ١٣، ١٠٤، ١٢٢، ١٧٥، ٣١٣، ٣١٤، ٥٠١ .

وأخيرا يلجأ إلى البتر فيقول من بحر الطويل[1]:

إذا قيل لى:قل من هويت وما اسمه ∴ وما سبب الشكوى وما علة الكرب؟
ضربت لهم قوما بقوم فصدقوا ∴ ولفظ لسانى غير معناه من قلبى

تلك كانت سقطات الشاعر، وهذه كانت كبواته، وهى ــ على كثرتها ــ لا تغض من شأنه، ولا تقلل من إبداعه، وحسبه شرفا وفخرا أن فجرت النوائب والأحداث ينبوع شاعريته، ومعين عبقريته، فجادت بما يتيه به على الزمان، ويزهو به ما بقى الملوان.

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٢، ونماذج أخرى: ٩٠، ١٣٢، ١٦١، ١٦٢، ٢٢٦، ٢٥٤، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٤٤، ٣٦٣، ٤٠٨، ٥٣١، ٥٣٢.

الخاتمة

الحمد لله ، أول بغير ابتداء، وآخر بدون انتهاء، نحمده ونثنى عليه أطيب الثناء، ونصلى ونسلم على خاتم الأنبياء، سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه ما دامت الأرض والسماء .

وبعد

فها نحن أولاء قد عشنا تلك السياحة العلمية مع أحد الشعراء الذى لم يحظ بالدرس الكافى من قبل الباحثين ، وسلطنا الأضواء على حياته وشاعريته، ووقفنا على حقيقة إبداعه الفنى، وقد أسفر هذا كله عن العديد من النتائج والتوصيات .

أما عن النتائج فهى تتمثل فيما يلى:

- كانت الشارة الغالبة على عصر الشاعر هى الانهيار السياسى والاجتماعى، ورغم ذلك كان يتسم بالازدهار الثقافى بفضل تشجيع الأمراء والملوك وبخاصة بنى عباد للشعر والشعراء .
- منى الشاعر فى حياته بسلسلة من الأحداث المأسوية الحادة: كضياع الوطن والاغتراب وفقد الأحباب، وكان لهذا أثره الجلى فى تفتق أكمام شاعريته، وإبداعه الفنى .
- اتسمت معانيه بالوضوح التام والتجميل والطرافة والابتكار دون اللجوء إلى المبالغات إلا نادرا .
- غلب طابع الاضطراب وفقد الوحدة الموضوعية على أفكاره، ورغم ذلك آثر جانب الطرافة، هروبا من حياته البائسة، وترويحا عن نفسه المكلومة .
- تميزت ألفاظه بالوضوح والرقة والسلاسة، دون اللجوء إلى الغريب إلا بهدف المحاكاة للقدماء، والإبراز للعبقرية الشعرية .

- تميزت أساليبه بالرقة والسهولة، مع الاحتفاظ بالجزالة والتنوع بين الأسلوب الإنشائى والقصصى والنثرى.
- تميزه بسعة الأفق، وخصوبة الخيال، وكان لسحر الطبيعة أثر الجلى فى طرافة التخيل، والابتكار فى التصوير.
- من الله عليه بموهبة فذة، مكنته من الإبداع الفنى فى تحقيق الإيقاع الموسيقى، بما يتفق والغرض الشعرى.
- إذا كانت قدمه قد زلت فى بعض الأخطاء، فإن ذلك لا يقدح فى عبقريته، ونبوغ شاعريته.

وأما عن التوصيات فإنى أوصى أولا بتسليط الأضواء على نتاج المبدعين من الشعراء ، ولاسيما إذا كانوا من نموذج شاعرنا . حتى يتعرف المتلقى على معالم حياته وأثرها فى شاعريته من جهة. وفى إبداعه الفنى من جهة أخرى، وثانيا ضرورة التركيز على الجانب الفنى فى الدراسة؛ للوقوف على حقيقة الإبداع، والإسهام بصدق فى إضافة لبنة جديدة إلى صرح المكتبة الأدبية؛ إخلاصا للعلم، وخدمة للبشرية.

وفى الختام أتوجه إلى الحق سبحانه بجزيل الحمد وعميق الثناء على توفيقه الذى حالفنى طوال هذه الرحلة فى إخراج هذا العمل الذى أرجو أن يكون خالصا لوجهه، فهو وحده حسبى ونعم الوكيل، وهو وحده نعم المولى ونعم النصير.

دكتور

الحسينى محمد إبراهيم الفقى

ثبت المصادر والمراجع
أولا ـ القرآن الكريم
ثانيا ـ المصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين ـ الإمام أبوحامد الغزالى ـ دار الريان للتراث ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (د.ت).
- فى الأدب الأندلسى د/ جودت الركابى ـ دار المعارف ـ القاهرة ط: ١٩٦٠م ، ١٩٦٦م، الرابعة: ١٩٧٥م.
- الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه د/ مصطفى الشكعة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط سابعة ١٩٩٢م.
- الأدب المفرد ـ الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخارى ـ ترتيب وتقديم الأستاذ / كمال يوسف الحوت ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ثانية : ١٩٨٥م.
- الأعلام ـ خير الدين الزركلى ـ المطبعة العربية ـ القاهرة ـ ط : ١٩٢٧ .
- نسخة أخرى مطبعة كوستا تسوماسى القاهرة من ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩م.
- نسخة ثالثة ـ بيروت طـ ثالثة ١٩٦٩ م.
- نسخة رابعة ـ بيروت ط ثالثة ١٩٧٠م .
- أوزان الشعر العمودى وموسيقاه د/ حسن أحمد الكبير ـ مطبعة الأمانة ـ القاهرة ط: ١٩٩٩م.
- بدائع البدائه ـ على بن ظافر الأزدى، ط بولاق: ١٢٧٨هـ ـ القاهرة ١٣١٦هـ.

- بلاغة العرب فى الأندلس د/ أحمد ضيف ـ مطبعة مصر ١٩٢٤م.
- البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر ـ عصر ملوك الطوائف د/سعد إسماعيل شلبى ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ط١٩٧٨م.
- تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجى زيدان ـ مطبعة الهلال ـ الفجالة ـ القاهرة ١٩١٣ م ، ١٩٣١م .
- تاريخ الأدب الأندلسى ـ عصر الطوائف والمرابطين د/إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ط أولى ١٩٦٢م.
- تاريخ الأدب العربى ـ كارل بروكلمان ـ نقله إلى العربية ـ د/رمضان عبدالتواب ، سيد يعقوب بكر ـ دار المعارف ـ القاهرة ط١٩٧٥م.
- تاريخ الأدب العربى فى الأندلس والمغرب عصر المرابطين والموحدين د.عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت : ١٩٨٢ .
- تاريخ الفكر الأندلسى ـ آنخل جنثالث بالنثيا ، نقله عن الأسبانية د/ حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط أولى ١٩٥٥م.
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف الإمام الحافظ زكى الدين عبدالعظيم عبدالقوى المنذرى ـ تحقيق المرحوم/ مصطفى محمد عماره ـ هدية جريدة صوت الأزهر ط: ٢٠٠٥م
- ابن حمديس الصقلى ـ أ/ على مصطفى المصراتى ـ سلسلة اقرأ ، دار المعارف ـ القاهرة ط: ١٩٦٣م .

- ابن حمديس الصقلى حياته من شعره ــ د/ سعد إسماعيل شلبى ــ مكتبة غريب ــ القاهرة ط ١٩٧٧م.
- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ــ السيدة/ زينب بنت على بن حسين السورية ــ المطبعة الكبرى الأميرية ــ بولاق ط١٣١٢هـ.
- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ــ ابوالحسن على بن بسام الشنترينى ــ الجزء السابع ــ القسم الرابع ــ المجلد الأول ــ تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ــ بيروت ــ ط أولى ١٩٧٩م، نسخة أخرى ــ تحقيق جامعة القاهرة، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر (د.ت).
- شرح ابن عقيل قاضى القضاه بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلى المصرى الهمدانى ــ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد ــ المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ الجزء الأول ط : ١٩٨٨م ، الجزء الرابع ط : ١٩٩٠ م
- الشعر الأندلسى ــ بحث فى تطوره وخصائصه أ.أميليو غرسيه غومس ــ عربه عن الأسبانية د/ حسين مؤنس ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ط: ١٩٥٢م.
- ظهر الإسلام ــ د. أحمد أمين ــ الجزء الثالث ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٥٣م.
- العرب فى صقلية ــ د. إحسان عباس ــ دار المعارف ــ القاهرة (د.ت).

- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى ـ تحقيق الشيخ/ محمد محيى الدين عبدالحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ط ثالثة : ١٩٦٣م.
- الفتن والنكبات الخاصة وأثرها فى الشعر الأندلسى ـ د/فاضل فتحى والى ـ دار الأندلس للنشر والتوزيع ـ السعودية ـ حائل ـ ط أولى ١٩٩٦م.
- الفتن والنكبات العامة وأثرها فى الشعر الأندلسى ـ د/ فاضل فتحى والى ـ دار الأندلس للنشر والتوزيع ـ السعودية ـ حائل ـ ط أولى ١٩٩٤م.
- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، د/ شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط ١٩٧٦م.
- قصة الأدب فى الأندلس ـ د/ محمد عبدالمنعم خفاجة ـ المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ ط أولى ١٩٥٦م، مكتبة المعارف ـ بيروت ط ١٩٦٢م .
- قضايا أندلسية د/ بدير متولى حميد ـ دار المعرفة ـ القاهرة ط١٩٦٤م.
- من قضايا الإنسان فى الشعر الأندلسى ـ د/ محمد عويس ـ مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ـ ط: ١٩٨٦م.
- مجمع الأمثال ـ أبوالفضل أحمد بن محمد النيسابورى الميدانى ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ط ثانية (د.ت).
- مذكرات الأمير عبدالله بن تاشفين، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ـ أ. عبدالله بن بلقين ـ تحقيق أ. ليفى بروفنسال ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط١٩٥٥م.

- مغنى اللبيب ـ جمال الدين بن هشام الأنصارى ، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ـ (د.ت).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الشيخ/ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ـ تحقيق الشيخ/ محمد محيى الدين عبدالحميد ـ مطبعة دار السعادة القاهرة ـ ط أولى ١٩٤٩م، نسخة أخرى ـ المحقق نفسه ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت (د.ت) ، نسخة ثالثة. تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ط ١٩٦٨م.
- الهجاء فى الأدب الأندلسى ، د/ فوزى سعد عيسى ـ دار المعارف ـ الإسكندرية ـ دار صادر بيروت ـ ط : ١٩٦٨م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ـ تحقيق الشيخ/ محمد محيى الدين عبدالحميد ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ط:١٩٤٥م، ونسخة أخرى ـ المحقق نفسه ـ القاهرة ـ ط:١٩٤٨م ، ونسخة ثالثة تحقيق د/ إحسان عباس ـ المجلد الثالث ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط: ١٩٧٠م.

ثالثا ـ الدواوين

- ديوان ابن حمديس ، صححه وقدم له د/ إحسان عباس. دار صادر ـ بيروت ـ ط: ١٩٦٠م.
- ديوان ابن سهل الأندلسى ـ تقديم د/ إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١٩٨٠م .

- ديوان ابن المعتز ـ تحقيق أ/ كرم البستانى ـ دار صادر ـ بيروت (د.ت).
- ديوان أبى نواس الحسن بن هانئ ـ تحقيق أ/ أحمد عبدالمجيد الغزالى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان ط١٩٨٤م.
- شرح ديوان امرئ القيس بن حجر الكندى ـ أبوالحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمرى ـ صححه الشيخ بن أبى شنب ـ كلية الآداب بالجزائر ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط: ١٩٧٤م.
- شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ـ صنعة الإمام أبىالعباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى ثعلب ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط ثانية ١٩٩٥م.
- شروح سقط الزند ـ إشراف د/ طه حسين، تحقيق الأساتذة: مصطفى السقا، عبدالرحيم محمود، عبدالسلام هارون، إبراهيم الإبيارى، حامد عبدالمجيد ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٤٥م ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ط١٩٦٤م.

رابعا ـ المعاجم

- لسان العرب ـ جمال الدين بن منظور ـ تحقيق الأساتذة: عبدالله على الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلى ـ دار المعارف ـ القاهرة ط ١٩٧٩م.
- المعجم الوجيز ـ طبعة خاصة بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ ط : ٢٠٠٥م.